

الرواية الفائزة بجائزة الإمارات للرواية فئة الرواية القصيرة

رواية مدائن اللففة

نادية النجار



تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

Digital
Publishing
Program
برنامج
النشر
الرقمي



هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

مدائن اللففة

نادفة النجار

مدائن اللهفة

"السفر.. يُعلمك الصمت وبعد ذلك يحوّلك إلى راوي
حكايات!"

ابن بطوطة

إهداء

إلى المدائن كلها..

مدائن اللهفة والحسرة.. مدائن الأمل والألم.. مدائن الشرق والغرب.. مدائن الأمس والغد..
مدائن العراق والحدائق..

وساكنيها..

دون استثناء أو تمييز..

مدائن اللهفة

هنالك مدنٌ تسكننا، تأسرنا، تأبى أن تغادرنا، نحبها أو قد نكون أحببنا من فيها، وهنالك مدنٌ نساها ما إن تغادرها، لا نشواق لها، ولا يسوقنا الحنين إليها، ويتراءى لي أنها تُبادلنا الشعور ذاته. كثيراً ما أتساءل: هل تشعر المدن بالبشر؟ تفتقدهم؟ تشتاقهم؟ هل للمدن قلوبٌ تحنّ، تتلهف، تحزن، تفرح؟ أم أنها قلوبنا هي التي تنفطر اشتياقاً وتنغمس في اللهفة إلى حدّ الألم؟ هل تحمل المدن ثقل تاريخها وذاكرتها وحكايا من استوطنها؟ أم أنها لا تأبه بكل ذلك؟

أقفُ أمام لوحة الياسمين الدمشقي فيغمرني الحنين لهذه المدينة، تنتزعني رغماً عني، تسلبني قلبي، أشواق لها ولا أراها، أغادرها ولا تغادرني. ينتشليني أحدهم من حيني وينتهك صمتي، يسألني بصوتٍ فيه لثغة محبة:

-هل أنتِ من رسم هذه اللوحة؟

أجيب بغبطة بعد أن استدرتُ نحوه قليلاً:

- كلا أيها السيد.. أختي من رسمتها.. إنها هناك.

أشير بيدي نحوها، فأسمعه يقول لصاحبه:

- حقاً! رائعة.. اللوحة رائعة.

أبتسم، ثم أحول ناظري نحو اللوحة التي على يميني، لوحة "البوح لحظة الغروب". أتأملها، فتأسرني تفاصيلها كما لو أنني ألمحها لأول مرة، بدءاً من القمر المكتمل الاستدارة، فالشاطئ الرملي الناعم، وانتهاءً بالظلام الذي يلف جسد المكان. يراودني إحساسٌ بأنني هناك، يصلني صدى همسات يتسرّب نحوني من مكانٍ قريبٍ على الشاطئ، أكاد أشعر

بأنفاس البحر الباردة تداعب قسماط وجهي. تسألني امرأة في منتصف العمر لم ألاحظها وهي تقف بجانبني:

- هل كنتِ تقصدين بحراً بذاته عندما رسمتِ هذه اللوحة؟.

أجيبها من دون وعي وكأنني أحدث نفسي:

- البحر الأحمر.. ربما.

تسأل بتعجب:

- ماذا تقصدين بكلمة ربما؟.

أندم على تسرّعي في الإجابة، إلا أنني أستدرك قائلة:

-لأنني لم أرَ البحر الأحمر قط.. فقط تخيلته، لذا قلتُ ربما.

لا أعتقد أنها اقتنعت بإجابتي، يبدو ذلك جلياً من تقاسيمها التي ما زالت منكمشة وموغلة في الدهشة والحيرة. تُعاود تأمل اللوحة كأنها تبحث عن شبهٍ بينهما، بين الواقع والخيال، أقول ربما، لا أعرف، كل ما أدركه أنه ليس هناك سواي من يعرف حكاية هذه اللوحة. يجدر بهذه السيدة معرفة أن الرسام يحتفظ عادةً بأسرار لوحاته لنفسه، ويُخفي رعشات فرشاته على لوحة القماش بعيدة عن العيون. أمضي نحو لوحة "أزهار التوليب" فيتراءى لي أنها تريد أن تقصّ عليّ حكايتها، أن تخبرني عن الحقل الذي أتت منه، الرجل الذي انتهك خصوصيتها واقتلعها من مدينتها، عن رحلتها المنهكة الطويلة. يا للبؤس المُعلّق على عاتق هذه الأزهار! يطاف بها المدن دون اختيار وتُصطفى لطريقٍ تجهله، ثم تُقدم قرابين لعلها تمنح أحدهم لحظاتٍ من سعادةٍ مختلصة. بالقرب منها مساحة تحتلها لوحة "الجامع الكبير"، أقربها وأحبها إلى قلبي. أروقة الجامع البيضاء تشعرني بالنقاء والسكينة، وزخارفها

المنمقة الملونة تضيء على فؤادي هالة من نور. تقترب مني شابة يبدو أنها صحافية تعمل
لصالح جريدة محلية ذائعة الصيت، تسألني بفضول:

- مدائن اللهفة؟ اسم جميل.. لكن لم اخترت هذا الاسم لمعرضك الفني الأول؟.

- لأن كل لوحة تُعبّر عن مدينة.. تأخذني إليها.. لا يقتصر السفر عبر الحدود، بل يكون عبر
الألوان.. لا نحتاج إلى جوازات سفر، بل إلى فرشاة وألوان.. لا إلى نقود، بل إلى الحب
وبعض الموهبة والقليل من الصبر.. حتماً لسنا بحاجة إلى تأشيرات دخول فالكل هنا مرحب
به.

تُعدّل من وضع نظارتها ذات الإطارات السوداء، وتسالني:

- هل هنالك من سبب كي يعود ريع المعرض للأطفال المعوزين حول العالم؟.

أجيب باستنكار جاهدٌ كي أخفيه:

- عمل الخير لا يحتاج إلى سبب!.

- أقصد لماذا لا تحددين فئة معينة؟ أو أطفالاً ينتمون إلى دولة بذاتها؟.

- لأن أوجه الخير لا طائفة لها أو وطن أو جنسية أو عرق! أعتقد أنك توافقيني على هذا..
أليس كذلك؟.

تجيبني بهزة من رأسها أدت إلى نزول بعض خصلات شعرها الأشقر المصبوغ على وجهها،
وتمتمت:

- آه.. بلى بلى.

أشير إلى لوحة "أحلامي المبعثرة"..

- انظري مثلاً إلى هذه اللوحة.. تجدين فيها ذراعيّ طفل يُحاول لملمة أشياءه.. هذا إن كان بمقدورنا أن نسميها أشياء! أو لُسمّها بقايا أشياء.. فتات أشياء.. هنا أشلاء لعبة.. هناك قميص مهترئ.. بجانبه كتاب ممزق وأقلام مكسورة.. تخيلتها لأحد أطفال المخيمات الذين نشاهدهم على القنوات الإخبارية.. ضحايا الحروب التي هي من صنع البشر... كنتُ كلما أشاهدهم يراودني سؤال يصدحُ في أذني ويأبى مغادرتها، كيف يمكنني مساعدتهم؟ قبل شهور عندما بدأتُ بالرسم مرة أخرى شاهدتُ على الشاشة أطفالاً يبيعون أحلامهم في أحد المخيمات البائسة، عندها ذهبتُ على الفور ورسمتُ أحلامهم المبعثرة.. من هنا جاءت الفكرة فاختصرت معاناتهم من خلال لوحة. لقد توقف الصوت الذي كان يصدح في أذني بذلك السؤال ما إن تيقنت بأن الفن بإمكانه فعل الكثير، بل أكثر مما نتصور.

- فكرة نبيلة.

لم أخبرها أيضاً عن رسائل قرأتها في الآونة الأخيرة كانت المحرك الرئيس لإستيقاظي من سبات عميق وتغيير حياتي برمتها. في تلك اللحظة استرعى انتباهي دخول أحدهم، إنه هو. يرتعش قلبي وأشعر بنبضاته تزداد تواتراً فأزداد توتراً. أرى أمي موزة تدخل معه، تلوح لي بيدها فأبتسم. تستدير الصحافية بنظرها نحو الباب حيث اتجاه عيني، كأنما تريد أن تعرف إلى من أنظر، فالتفتُ إليها مجدداً بابتسامة متعثرة زائفة متأكدة أنها فهمتها، إلا أنها على ما يبدو تُجيد فن التجاهل. تتجاوزني الأفكار حول أفضل السبل للتملص منها ومن أسئلتها المبطنة.

تعاود الصحافية للوحة السؤال مرة أخرى:

- مدائن اللهفة...؟ لماذا استخدمت كلمة اللهفة؟.

دون تفكير أجيب:

- لأن بعض المدن لا تكف عن مطاردتنا.. نساfer معها وتسافر معنا.. تأخذنا إلى من تتلهف لهم أرواحنا وتشتاقهم.

-1-

دبي

أُحيا فيك يا وطني.. غريب الروح والبدن

وأنت بداية الدنيا.. لديّ وآخر الزمن

ورملك كان لي مهذاً.. وفي أحضانه كفني

د. مانع سعيد العتيبة

(شاعر من الإمارات)

بعض المدن..

تغنيك عن ألف مدينة..

تهديك ألف حكاية..

كمدينتها..

كانت تحرق بضجرٍ نحو المدى ولم تكن مدركة مدى روعة تلك اللحظة. هو الإنسان كذلك لا يدرك بهاء لحظاته إلا بعد تسرّبها من بين يديه، عندما تصبح مجرد ذكرى، تزورنا كعابر سبيل من فترة إلى أخرى، أو تضيع في دهاليز الذاكرة.

طيور البحر كانت تمرح بغنجٍ ودلال على الرمال الذهبية، بينما زخات المطر تتراقص على صفحة المياة الفضية بخفةٍ وتعاقبٍ بين توقفٍ وهطولٍ، ما أضفى وهجاً أسراً على لوحة الأصيل. كان آخر أيام ديسمبر بديعاً لكنها ما كانت تنظر إلى كل ذلك الحُسن من حولها، لم تكن مدركة أن غيرها يتمنى أن يحظى بفرصةٍ لرؤية هذا المكان وفي هذا الوقت من العام بالتحديد.

بعد ساعاتٍ ستنتقل في إمارة دبي أضخم عروض للألعاب النارية في العالم احتفالاً بحلول العام الجديد، إنه الرابع عشر بعد الألفين. ستتوزع العروض المبهرة ما بين برج خليفة، وبرج العرب، وجزيرة النخلة، وجزر العالم، وستستمر لمدة عشر دقائق في أنحاء جزيرة النخلة حيث كانت تتواجد في ذلك المساء. ستوصف هذه الألعاب النارية لاحقاً بأنها الأضخم في التاريخ، وتسجل مدينة دبي رقماً قياسياً عالمياً جديداً كعادة هذه المدينة مع التميّز.

العالم كان يترقب.. إلا هي..

الكل كان يحلم.. إلا هي..

كانت تفكر فيه، هو من قال عنها إنها بالنسبة إليه مجرد تجربة تعلّم منها! تتساءل، إن أراد بقوله هذا أن يخفف عنها وطأة الانفصال، وهو الكاتب والشاعر المثقف كما تعود أن يطلق على نفسه، فكأنما لم يهتدِ إلى وصفٍ أفضل لعلاقتها الفاشلة بعد تجربة زواج قصيرة. كان بوسعها أن تدخل معه في جدالٍ لن تخرج منه بنتيجة لذلك فضّلت أن تتجاهل إهائته. الواقع أنها لم تخبر أحداً بذلك، حتى أقرب الناس إليها، خجلت أن تخبرهم، لأنه كان بالنسبة إليها كل شيء، بينما هي بالنسبة إليه كانت كأي شيء، وربما لا شيء! جُلّ ما استطاعت إخبارهم به، كانت جملة واحدة فقط لا غير: "لقد انتهى كل شيء!".

من النافذة في الطابق العلوي شاهدت والدتها ماما أسماء وزوجة أبيها أمي موزة تجلسان في الحديقة الخلفية المطلة على البحر تثرثران. من يراها لا يصدق أنهما زوجتان لرجل

واحد أو ضربتان كما يقال، حتى هي تشعر بالدهشة من قوة علاقتهما التي لم تتأثر مع الزمن. الواقع أن مريم ذاتها تحب زوجة أبيها كامها تماماً بل أحياناً أكثر بقليل، وإن كانت تخجل أن تصرّح بذلك. أمي موزة التي لم ترزق بأبناء هي من رعتها منذ صغرها نظراً لانشغال والدتها برعاية إخوتها الذكور الذين أتوا تباعاً، وكان الله تعالى عوضها عن الابنة التي طالما انتظرتها ولم تأت.

طالما أسرت زوجة الأب لمريم بأنها أجمل هدايا القدر بالنسبة لها، الحقيقة أنها كانت محقة فوجودها أضفى لونهاً ووهجاً على حياتها التي كانت على وشك أن تفقد رونقها، لذلك سميتها زهرة الياسمين تيمناً بالياسمين الدمشقي، حيث تنحدر عائلة والدتها. أحبت مريم تلك التسمية التي تذكرها بتلك الزهور التي كانت تملأ حديقة عمو حسن في دمشق.

كانت ترى جارهم الستيني كل صباح يتجول في حديقته منزله على كرسيه المتحرك بمساعدة الفتى الذي يرافقه، بعدها يبدأ بممارسة الكتابة كطقيس يومي لا يتغير. خمنت أنه يعمل في مهنة تتعلق بالكتابة كأن يكون صحفياً أو أديباً أو كاتباً إلا أنها اكتشفت أنه لم يكن أيّاً من ذلك. كانت تلاحظ أنه لا يستخدم في فعل الكتابة سوى قلم الحبر السائل، ولم تراه يستخدم الحاسب الآلي قط. كان يكتب بتمهل شديد ويشكل الحروف كأنها رسوم أو زخارف هندسية، استطاعت من خلال لمحات خاطفة أن تكتشف امتلاكه موهبة الخط العربي الجميل. حدّثها ذات يوم عن أنواع الخط العربي ومميّزات كل خط، عرفت الخط الكوفي، الرقعة والديواني وغيرها. أعجبها تعدد أشكال معظم الحروف ومرونتها في خط الثلث، الذي يعتبر من أروع الخطوط العربية منظرًا وأصعبها إتقاناً، فالخطاط لا يعتبر فنّاناً حقيقياً ما لم يُتقن خط الثلث وإن أتقن غيره على ذمة عمو حسن الذي أخبرها بذلك.

سألته ذات مرة عن سبب إصراره على الكتابة بخط يده، فأجابها:

- الآلة يا ابنتي لن تشعر باختلاجات القلب وارتعاشات اليد أو دفء الأصابع فتظهر الكلمات كلها متشابهة من دون روح، أما الكتابة بخط اليد فتُظهر أحاسيس الكاتب وعواطفه. هل رأيت يا ابنتي خطين متماثلين؟ خطوط البشر كبصمات الأصابع لا تتطابق، كل منا يظهر

جزءاً من شخصيته في خطه، بل نستطيع التكهن بالحالة النفسية التي يمر بها الكاتب، كأن يكون قلقاً أو فرحاً أو غيره. جيلكم، للأسف لم يجرب قراءة وكتابة الرسائل التي كُتبت بخط اليد، إنها تجربة فريدة!

يومها تساءلت في سرها: وهل يوجد من لا يزال يتبادل الرسائل الخطية في عصر الـ"أيباد" والمحمول؟ لا بد أن يكون هذا الرجل إما فناناً أو كاتباً، عاشقاً أو مجنوناً! لاحقاً تكتشف أنه كل ما سبق بل وهارياً أيضاً!

كطفلةٍ شقيةٍ اعتادت أن تهرب من أمها وأخوتها لتختلس النظر إليه كل صباح من النافذة المطلة على حديقة منزله. تتأمله من بعيد وهو يرسم الحروف بأنامله المرتعشة، وينتقل من سطرٍ إلى آخر وصفحةٍ إلى أخرى، بينما كان يرتشف قهوته ببطء شديد، نظراً لاهتزاز أصابعه الذي ازداد في الآونة الأخيرة. لطالما تخيّلت أن هذا الرجل الذي يعيش وحيداً، يكتب لزوجته راحلة عن عالمنا منذ سنين أو يبث شوقه لامرأةٍ غادرت منذ أمد بعيد، لكن لم يخطر لها أبداً أنه سيهدئها يوماً ما بعضاً من هذه الأوراق، التي سيضعها بأناقة في علبة من العلب الخشبية التقليدية المطعمة بالصّدف الدمشقي، وأنها ستحدث ثورة في حياتها. اعتقدت أنها مجرد حروف رسمتها يد فنان قبل أن يعتزل، أو كلمات كتبها كاتب مغمور لم يسمع عنه أحد، اعتقدت أنها مجرد كلمات عادية كغيرها.

لكن حتى الكلمات لا تتشابه..

بعضها نور.. وبعضها قبور..

هي مجرد كلمات..

لكن..

بعضها تأتي وترحل وكأنها ما قرأت يوماً..

وبعضها تبقى عالقة في الذاكرة دوماً..

هي مجرد كلمات..

لكن..

بعضها تصل مبكراً قبل أن نعي أن للكلمة ألف معنى..

وبعضها تصل متأخرة فتفقد قراءتها أي جدوى..

وبعضها لا تصل رغم انتظارها عمراً يفنى..

هي مجرد كلمات..

لكن..

بعضها تختلس منك سنيماً أو تتركك صريعاً..

بعضها تهبك روحاً جديدة أو تهديك حكمة..

بلى..

هي مجرد كلمات..

لكنها ستغيّر مسار حياتها، كريحٍ عاتية تضرب وجه سفينة عابرة تُبحر في رحلة طويلة.
حدث ذلك خلال صيفهم الأخير بدمشق في بداية الأحداث المؤلمة في سوريا، بعد أيام من بدء الإجازة جاءهم اتصال من والدها بوسلطان يطلب منهم العودة قبل أن تتفاقم الأحداث التي ما لبثت أن تدهورت سريعاً. كان ذلك منذ أكثر من سنتين، بعدها تصاعدت مشكلات زواجها فنسيت اللعبة، التي أهداها إياها الرجل الكهل، الذي لم تعرف عن حياته سوى القليل، كما أنها لم تعرف السبب الذي جعله يخصها بهذه الأوراق دون سواها. أرسلها في يد

البستاني الذي كان يعمل عنده فلم يتسنَّ لها وداعه وسؤاله عنها، جُلَّ ما تتذكره أنه قال لها على عجل:

- يبلغك العم حسن سلامه ويهديك أوراقه التي كتبها، يقول إنها لك فافعلي بها ما تشائين، كان بوده توديعك لكنه في المشفى لإجراء بعض الفحوصات.

اليوم ودون سائر الأيام تذكرته، بل وتستطيع الجزم أنها تشتاق له نوعاً ما. تشتاق إلى سماع الأشعار التي يُلقِيها بصوته الخافت ذي البُحة متداخلاً مع صوت العصافير، ورائحة الياسمين الدمشقي التي توضع من حوله، ممتزجاً برائحة قهوته التركية السادة دوماً. كان وفيّاً للشعر وقصائد نزار، بل كان يشبهه إلى حدِّ كبير، لذلك كانت تسميه عمو حسن قباني.

تعجبت كيف نسيت اللعبة والأوراق التي تركتها كل هذه الفترة، بينما كانت تهبط درجات السلم عائداً إلى منزلهم الذي لا يبعد كثيراً عن هنا، حيث فيلتهم أو بيت الشاطىء في "نخلة الجميرا"¹ التي يقضون فيها نهايات الأسبوع والإجازات في العادة. ودعت أمها وزوجة أبيها وأخبرتتهما أنها نسيت شيئاً مهماً في المنزل ستذهب لإحضاره. وصلها صوت والدتها الغاضب كالعادة بينما كانت تلبس عباءتها على عجل:

- لكن اليوم ليلة رأس السنة والشوارع مزدحمة كيف تخرجين الآن؟ دعي السائق يذهب..
مريم ارجعي .. مريم .. هيا ارجعي!

وعدتها أن لا تتأخر بينما كانت تسرع الخطى نحو الخارج، ثم تنهى إلى سمعها صوت أمي موزة تقول:

- دعيها تذهب يا أسماء، ألا ترين حالتها في الآونة الأخيرة؟ درب السلامة يا ابنتي..
ليحفظك الله.

هرعت نحو سيارتها وتمتمت في سرها بصوتٍ لا يسمعه أحد سواها: "كم أحبك أمي موزة!".

ما كانت تطبيق الانتظار وهي التي تأخرت أكثر من سنتين، خائفةً أن تفقد حماسها الذي غاب عنها منذ مدة ليست بالقصيرة.

هكذا نحن..

نترك أشياءً مهمةً منسيةً في ركنٍ قصي مهمل لفترةٍ طويلة، ولكن ما إن نقرر إزاحة الغبار عنها حتى لا نطبق صبراً، وكأننا ما تركناها بأنفسنا للغياب والنسيان.

من نافذة سيارتها شاهدت أختها الصغرى ريم تلوح لها بيديها، فردت عليها بتلويحة من يدها فابتسمت ريم. لحظتها تمنى لو كانت مثل أختها تعيش في طفولة أبدية، لا تعباً بكل ما يجري حولها، لا تتحسر على الأمس ولا تترقب الغدا! همست في سرها: "هنيئاً لك يا ريم طفولتك التي لن تنتهي".

وغادرت.. لكن ابتسامة ريم لم تغادرها..

باريس

"كل صخرة هي حرف، وكل بحيرة هي عبارة، وكل مدينة هي وقفة، فوق كل مقطع وفوق كل صفحة لي هناك دائماً شيء من ظلال السحب أو زبد البحر".

فيكتور هوغو

(أديب فرنسي)

كابتسامة ريم تماماً..

تكون أجمل الابتسامات..

تلك التي تنبع من القلب دون أن تُلَوِّث بشيء في طريقها نحو الشفاه..

لا تشبه ابتساماتنا التي غالباً ما تحمل في طياتها شيئاً من روااسب النفس..

ابتسامة ريم المصابة بـ"متلازمة داون" تختصر البراءة والوداعة كحال جميع الأطفال المصابين بهذه المتلازمة، لم تفارق الابتسامة محياها حتى اختفت أختها عن أنظارها، فحلّ محلها حزن كسا ملامحها البريئة. منذ فترة لاحظت ريم تبدل حال أختها، لم تعد كما كانت.

دوماً ساهمة.. سارحة..

والأهم من ذلك كله..

لم تعد ترسم..

كم تشتاق إلى الأيام الخوالي التي كانت تقضيها في مراقبة أختها الكبرى حينما كانت ترسم. تتأمل حركات الفرشاة بين يديها وتشاهد الألوان بدهشةٍ وحبور كيف تتحول إلى لوحةٍ تشبه بعض الأشياء من حولها. لم تكن تملّ من قضاء الساعات الطوال في مراقبة ذلك التحول الكبير الذي يطرأ على اللوحة الصماء، لتزخر بعدها بكرنفالٍ من الألوان والأشكال. كانت تلك من المتع البسيطة التي افتقدتها في الآونة الأخيرة. لا تعرف إن كان لذلك علاقة بتلك الليلة التي لبست فيها أختها فستاناً بلونٍ أبيضٍ ناصع محتضنة باقة من التوليب الزهرية بين يديها. بعدها غابت عن منزلهم فترة من الزمن، ومن ثم عادت بشخصيةٍ مختلفة. مضت الأيام والتساؤلات ما زالت تراود ريم وتؤرقها، ولم تجد لها إجابات شافية، "كيف يتبدل حال الإنسان في فترةٍ قصيرة؟ وهل لذلك علاقة بالفستان الأبيض أو التوليب الزهري أو أي لونٍ آخر؟"

في ركنٍ قصيٍّ من غرفة مريم تقبع آخر لوحاتها بإهمالٍ واضح فوق الحامل الخشبي، ظلت اللوحة غير المكتملة كما تركتها قبل أن تسافر إلى شهر العسل. لم تستطع ريم أن تتبين من ملامح اللوحة الباهتة ما كانت أختها بصدد أن ترسمه، ثم جالت ببصرها نحو أدوات الرسم الخاصة بها. تأملت فرشاتها المفضلة التي ابتاعتها من أحد المحلات المتخصصة بالرسم في شارع "سان جرمان" بمدينة باريس. تعشق ريم مدينة باريس حيث يأخذها والداها في الإجازات إلى مدينة الملاهي "يورو ديزني". كانت في كل مرة تركب هناك لعبة الدمى الراقصة تنبهر مثل أول مرة. تأسرها ابتسامته تلك الدمى فترقص معها وتهز جسدها الممتلئ يمنةً ويسرة، تتخيلهم أشخاصاً حقيقيين بل تجدهم أجمل بكثيرٍ ممن تراهم خارج هذا العالم الساحر. ما إنْ تخرج من اللعبة حتى ترى الوجوه الكالحة، الحالكة من حولها مرة أخرى، فتعيد الكرة من جديد لتهرب من تلك النظرات التي سئمت من محاصرتها.

كم تكره نظرات بعضهم إليها! لا تعرف إن كانت نظرات شفقة أم عطف أم خوف، تتمنى لو تستطيع أن تُخبرهم أن المصاب بالإعاقة الجسدية أو الذهنية لا يعني أنه مصاب بالإعاقة

الشعورية. إنه بحاجة إلى الحب لا الشفقة، إلى الفهم لا الخوف، تود أن تخبرهم بذلك إلا أنها تعجز فتتجاهلهم وتتعمق في عالمها الخاص، متيقنة بأنه أجمل وأنقى بكثير من عوالمهم.

أمسكت ريم بفرشاة الرسم وحاولت أن تُقلد أختها. حركت الفرشاة على اللوحة البيضاء فتشكلت انحناءات بلا لون، فقد كانت الفرشاة عقيمة الألوان تنتظر من صاحبها أن تغدق عليها بعضاً من ألوان الحياة. ثم نظرت إلى الفرشاة ببراءة، وبدا لها أن تتحدث إليها كما يفعل كل الأطفال حينما يتصورون أن كل الأشياء لها أرواح تفرح وتحزن وتركض وتلعب، ولها ألسنة تتكلم بها وتُعبّر عن ذواتها من خلالها. سألتها بصوتٍ هامس غير واضح²:

- أأأأيتها الفرشاة.. هل تعرفين كيف أعيد مريم إلى ممارسة الرسم؟

خُيّل إليها أنها سمعت الفرشاة تقول:

- أحياناً نتوقف عن ممارسة الأشياء التي تستهويننا والهوايات التي نحبها، لأننا نحتاج إلى فترة من الراحة أو العزلة، لكننا إذا امتلكننا العزيمة نعود إليها بمتعة أكبر، وأحياناً أخرى نحتاج إلى شيء يُعيدنا إليها.. كحدث.. موقف.. كلمة.. شخص.. أي شيء بإمكانه مساعدة أختك.. حتى أنت؟

انتفضت ريم وكأنها لُسعت على حين غرّة، فردت بتعجب:

- أأأنا؟ أنا؟ لا.. أنا معاقة ألا ترين؟ كيف؟ كيف؟

كانت الفرشاة تتكلم بحق، سمعت كلماتها تخفق بأذنيها..

- نعم أنت! ولم لا؟ أنت لست معاقة أو متخلفة بل من ذوي الاحتياجات الخاصة! هنالك تسميات خاطئة تعود الناس على التلفظ بها، لكن تكرارها على ألسنتهم لا يبدر خطأها، لكل

منا دوره في الحياة! صدقيني.. أنت تستطيعين أكثر مما تتصورين! كوني ملهمة، تغلبي عليهم! بيّني لهم خطأهم! أنت تحبين الرسم أليس كذلك؟

ردت ريم بسرعة ولهفة:

- نعم .. نعم .. لم أخبر أحداً بذلك!

في تلك اللحظة بدأت ريم مقتنعة أن الفرشاة تتحدث معها كصديقة قديمة، تعرف عنها أكثر مما تعرف هي عن نفسها..

- كنت متأكدة من ذلك.. هل تعلمين كيف عرفت ذلك؟

- كيف؟ كيف؟

- أتذكرين ذلك الصباح الصيفي في شارع "سان جيرمان" بباريس؟

- مम्म لا .. تذكرت .. ابتعناك من ذلك المحل .. تعمل فيه امرأة شعرها أبيض قصير.

- كنت أنتظر منذ فترة أن يبتاعني أحدهم دون جدوى في ركنٍ منعزل على الرف لا يصله ضوء الشمس، ولست بمتناول أنظار الزبائن، إلا أنني في ذلك اليوم رأيت عينين جميلتين مسحوبتين قليلاً إلى الورا تنظران نحوي بفضول. تساءلتُ بيني وبين نفسي هل سيقع اختيارها عليّ؟ راودني شعورٌ خفي بأنها ستختارني وسأخرج أخيراً من هذا المكان المظلم الكئيب، لكنني لم أشأ أن أضع آمالاً وتوقعات زائفة. إلا أن إحساسي صدق هذه المرة، وكأنها شعرت بسأمي، فتجاهلت صاحبة العينين المسحوبتين جميع الفرش التي طالما أسرفت في معايرتي بأني سأبقى معزولة ولن يرغب أحدهم في اقتنائي، وظلت أنظارها متجهة نحوي. حاولت سحبي نحوها إلا أنني وقعتُ من بين أصابعها في المرة الأولى والثانية، في المرة الثالثة استطاعت الظفر بي، كنت فرحة.. جذلة.. لأن أحدهم اكتشفني بعد مدة طويلة منذ مجيئي إلى هنا، أحدهم سيحررني، سيطلق سراحي، سأرى ما خلف هذه الرفوف، ما

وراء هذه الأبواب، سأعرف الفرق بين الليل والنهار، بين الظلام والنور.. وما إن تلقفتني تلك الأصابع حتى تأكدت أنها أصابع مختلفة.. أصابع فنان.. رسام.. كانت تلك الفتاة التي اكتشفتني هي أنت.. أنت يا ريم.. حدس الفرشاة لا يخيب في معرفة أصابع الرسام الحقيقي.. أنت رسامة بالفطرة.. أنت موهوبة يا ريم..

بحلقت ريم بالفرشاة التي كانت لا تزال بين أصابعها وتمتمت بصوت تملؤه الدهشة:

- ماذا .. رسامة!

- نعم رسامة! حاولي، وستكتشفين ذلك بنفسك.. نحن الفراشي لا يخطئ حدسنا.. ثقي بي.

- سأحاول.. لكن .. لكن ماذا .. ماذا أرسم؟

في تلك اللحظة سمعت ريم صوت الباب يُفتح فارتبكت، ووقعت الفرشاة من بين يديها، ثم رأت مريم تقف أمامها، فتسمّرت في مكانها خشية أن تكون قد فعلت شيئاً يغضبها.

رأت مريم الفرشاة على الأرض فتأملتها من أعلى بنظرة فاحصة، كانت فرشاتها ذات المقبض الخشبي، المستديرة الوبر، الأحب إلى قلبها. تلك الفرشاة التي أشادت البائعة الفرنسية العجوز بها، وأثنت على اختيار مريم لها رغم أنها كانت من اختيار أختها الصغيرة، إلا أنها لم تجد سبباً لإخبار العجوز أن ريم هي من تستحق الثناء على الاختيار.

نظرت نحو أختها وسألتها:

- ماذا تفعلين يا ريم؟

- أريد أن ... أن أرسم!

- حسناً.. دعي عنك هذه.. سأحضر لك أوراقاً وأقلاماً ملونة.

- لا.. لا .. لا بل أريد أن أرسم بـ..

وأشارت إلى حيث الفرشاة التي ما زالت على الأرض وكأنها تئن. شعرت الصبية الصغيرة كأن الفرشاة تتوسل إليها فحملتها من على الأرض، قرّبتها منها بحنوٍ بالغ ثم أردفت:

- بهذه.

- لكنه صعب، يحتاج إلى تعلم ومهارة وصبر يا ريم.

- أريد ذلك.

- ممم.. دعيني أفكر.

- أريد أن أرسم .. أرجوك.

- حسناً.. ولكن ماذا سترسمين؟

لم تكن قد فكرت في ذلك بعد، تأملت ما حولها فلم يشدها شيء سوى علبة خشبية كانت أختها تحملها بين يديها. عبيّر زكيّ انتشر في أرجاء المكان لرائحة ياسمين دمشقي، بترددٍ قالت:

- زهرة الياسمين.

دمشق

الياسمين الدمشقي

له أظافر بيضاء

تثقب جدران الذاكرة

نزار قباني

(شاعر من سوريا)

- سأرسم زهرة الياسمين.

قالتها هذه المرة بثقة أكبر، لم تكن تدري من أين أتتها فكرة رسم زهرة الياسمين، أيكون من عطر هذه الزهرة الذي فاح قبل قليل في أرجاء الغرفة؟ أم من ذكرياتها الدمشقية في تلك المدينة العتيقة التي يقصدونها كل صيف حيث تزور والدتها السورية أهلها هناك؟ ربما من الاثنين معاً.

تناوبت نظرات مريم بين العلبة الخشبية التي كانت تحملها وأختها، ثم قالت:

- اختيارٌ جميلٌ.. سأعلمك تقنية الرسم بالألوان الزيتية وكيفية استخدامات الزيوت.. هيا بنا.. لكننا بحاجة إلى شراء علب ألوان إضافية، فبعضها جفّت وانتهت صلاحيتها.. غداً صباحاً سنذهب معاً إلى محل متخصص لبيع أدوات الرسم.

استوعبت ريم الخطوات بسرعةٍ وذكاء، تركتها مريم تمارس أولى تجاربها في الرسم، وفي الوقت عينه انسحبت نحو الشرفة لتفتح العلبة الخشبية وتكشف سرها.

ما إن فتحت العلبة حتى فاحت رائحة الياسمين مع نسيم البحر فاستعادت مريم ذكريات دمشق وحديقتهم الدمشقية الجميلة. امتلأت العلبة بزهور ياسمين جفت أوراقها لكنها ما زالت تحتفظ بعبقٍ جميلٍ يذكرها بمكان قدومها. غريبةٌ هي الزهور فرغم حياتها القصيرة إلا أنها تعطينا نحن البشر دروساً في الإيثار والتضحية.

نضعها في الإناء لنتمتع بمشاهدة جمالها لأيامٍ عدة قبل أن تذبل..

أو نهدئها لمن نحب فيكون موتها شاهداً حياً على حبنا..

أو نسرّع بأجلها فنُجففها بين طيات الورق متوهمين أننا أعطيناها شكلاً من أشكال الخلود..

أليست لهذه الزهور قدرة على التضحية أكثر منا نحن البشر؟

تذبل لتُنعمش فؤاداً..

تموت لتُحيي حباً..

تجف لتُخلد موقفاً..

تجسد العطاء دون مقابل..

بل العطاء مع الرحيل.. الذبول.. الموت..

يا لفرط أنانيتنا! يا لرهافة الزهور!

كم نحن محظوظين بها! كم هي تعيسة بنا!

فتحت مريم الأوراق التي كانت ملفوفة بشريط أبيض من الساتان، كانت الرسائل مكتوبة بخط اليد وبدا لها أنها مرتبة ترتيباً زمنياً من الأقدم للأحدث، قرأت الورقة الأولى أو الرسالة الأولى:

الرسالة الأولى

لا أدري كيف أبدأ.. ومن أين..

لا أدري ماذا أكتب.. ولماذا أكتب..

صعبة هي البدايات..

تحتاج إلى شجاعة.. وعليها يترتب كل ما سيأتي..

ثمة كلمات كثيرة تدور في ذهني أود أن أكتبها إلا أنني في اللحظة الأخيرة أعدل عن كتابتها..

كلما رددتها بلساني تبدو لي عذبة جميلة، وما إن أحاول كتابتها تظهر قبيحة مشوهة..

ربما لأنني متيقن أن الكتابة صك اعتراف..

تشهد لك أو عليك..

تكون معك أو ضدك..

أثرها لا يزول..

ليس كالكلام يطير في الهواء فلا يعود..

حسناً.. لن أطيل عليكِ..

سأبدأ..

سأبدأ من حيث كنت أتأملكِ تختلسين النظر نحوي من نافذتك، فيخالجني شعورٌ لذيذٌ بالزهو والفخر بأن أحرك فضول شابةٍ مثلكِ نحوي. جذلٌ بأن هناك في هذا الكون الفسيح من لا يزال يكتثر بي، يشعر بي، يهتم بأمرِي ولو من باب الفضول أو الشفقة أو أي مسمى آخر، فلم تعد المسميات تهمني منذ فترة طويلة.

كنثُ أعرف ماذا تريدِين؟ جل ما تريدِين معرفته هو ما يُخبئه هذا الرجل المُقعد الغريب، تتساءلين ماذا يحمل في جعبته من أسرارٍ ولماذا يعيش وحيداً منعزلاً لا يزوره أحد، نعم كنثُ أعرف ماذا تريدِين وكان ذلك يُشعرني بالفرح.

أعرف أيضاً أن والدتك تحذرك من الاقتراب أكثر من هذا الجار الغريب الأطوار، وأنك رغم توصياتها تلك لا تستطيعين إلا الانجراف حيث يأخذك ذاك القلب الصغير الذي ينبض حباً وعطفاً لهذا الجار الكهل الذي لا ترتاح له والدتك، أيضاً يشدك الفضول، وربما شيء آخر لا تعرفين؟ حاسة سادسة.. ربما.

لم أتصور أن تكون كتابتي إليكِ كتابة متعسرة، هل لأننا حين نكتب عن أنفسنا تأخذنا الشهقة فترتعش أصابعنا ونعجز عن الكتابة؟ تيقنت أن من يكتب عن نفسه يحتاج إلى شجاعة وجرأة، فأن تفتح غرز جرحك وتعيد خياطتها مرة أخرى لأشد ألماً من الجرح ذاته! وما أكثر الجراح في ذاكرتي الهرمة يا ابنتي.. ما أكثرها!

أول جروحي هي مدينتي..

المدينة الأحب إلى قلبي..

دمشق ..

مدينتي التي تركتها فجر يوم ربيعي فاتن، وكأنني لم أشأ مغادرتها إلا وهي في أبهى حللها. كان ذلك في ثمانينيات القرن المنصرم، مع شروق شمسها كنت أنا أغرب نحو حياة جديدة، تركت كل شيء خلفي.. أمي.. زوجتي.. عائلتي.. أصدقائي.. كل شيء.. هربث من الجميع.. بمن فيهم نفسي.

الهروب كان مرادفتي الجديدة.. الهروب من الماضي.. من الوطن.. الأهل.. الذكريات.. كيف بوسع الإنسان أن ينسلخ عن ماضيه هكذا؟ كيف؟ لا أعرف؟ وما زلت لا أعرف!

رحلت.. غادرت.. نُفيت.. هربت.. مرة أخرى لا يهم المسمى.. غادرتها ولم أتصور أنني لن أعود إليها إلا بعد أكثر من عشرين سنة. لم يمهلني الزمن برؤية والدتي قبل رحيلها عن عالمنا كي أودعها، أو أهمس في أذنها بأن تُسامحني، أو أقبل جبهتها الباردة قبل أن تغادر دنيانا إلى غير عودة. لن أعرف شيئاً عن المرأة التي تركتها وعن تفاصيل حياتها التي ستعيشها دوني. لم أتصور أن الكيلومترات الشاسعة التي تفصلني عن إخوتي ستختصر علاقتي بهم على مكالماتٍ قصيرة ستتكلمش بدورها مع برودة الزمن. لم أكتشف أن الصقيع في ملاذي الجديد سيجمد بدوره العواطف والمشاعر.. سأنسى الأصدقاء والأقرباء.. سأخلع عني رداء الماضي وألقيه جانبا.. سألبس معطفاً جديداً يليق بغربتي.. هكذا.. بكل بساطة.. لكن، كيف؟

لست أدري كيف فعلتها! لا عجب أنني أعيد كل صباح ذات التساؤل: "لو عاد بي الزمن إلى الوراء هل كنت سأعيد الكرة؟". فتصلني أصوات خجولة مرتبكة من داخلي: "لا أدري.. لا أعتقد.. لست متأكداً". كنت حقاً لا أدري.

عندما نملك الصحة والشباب نصح قساة.. بل وأنايين أيضاً.. لا نأبه بالقلوب التي نتركها خلفنا ولا بالتأوهات التي يتركها رحيلنا، نُجزم مخطئين أننا سنبقى دوماً أقوياء.. أصحاب.. إلى أن نكتشف في غمضة عينٍ ضعفنا البشري.. حاجتنا إليهم.. العائلة.. الأسرة.. الأهل..

الوطن. حينذاك تحنّ إلى من يشبهك.. تحتاج إلى التحدث بلغتك.. تبحث عن يفهمك.. لا تريد أن تأخذ أدواراً لا تناسبك.. ليست على مقاسك.. ليست من ثوبك ومقامك.. تكتشف في لحظة أنك لا تنتمي إلى هذا المكان.. لا المكان يشبهك ولا أنت تشبه أصحابه.. مخطئ من يعتقد أننا نستطيع الانتماء إلى مكان لا يشبهنا.. نحاول.. بلى هي مجرد محاولات.. بعضنا يستطيع بنسب متفاوتة.. لكن يستحيل أن ننتمي إليها بشكل كامل.. ربما انتماء جزئياً أو جسدياً.. بلى جسديك معهم.. أما روحك فتركتها هناك.. لم ترحل أبداً.

بعد قرابة خمس وعشرين سنة في الغربية، وفي لحظة ضعفٍ اشتقت إلى مدينتي.. أهلي.. عائلتي.. أصدقائي.. اشتقت إلى كل شيء.. من أبسط الأشياء فيها إلى أعمقها.. من رائحة ياسمينها.. إلى حاراتها ومآذنها وجوامعها.. الضعف والشوق أعاداني إليها.. ولاكن أكثر صدقاً.. الندم والخوف هما من أعاداني أكثر من الشوق أو الضعف.

كنت قد خرجت من دمشق نحو المجهول.. أو المستقبل كما كنت أقنع نفسي.. لم أخطئ لهروبي مسبقاً.. لم يكن لدي الكثير من الوقت لأودع أحداً.. كان عليّ الهرب.. سافرت دون وجهة.. دون عنوان.. لم اختر وجهتي.. القدر اختارها لي..!

فاجأ دوي الألعاب النارية الفتاتين المنهمكتين، إحداهن في أوراقها والأخرى في ألوانها، فتركتنا ما بين أيديهما نحو المشهد الرائع. انبهرتا بمهرجان الجمال السمعي والبصري من حولهما، الذي تلاً في الليل واستمر دقائق عدة. لا ريب أن كل من كان متواجداً هناك انبهر بالجمال الذي لف سماء مدينة دبي تلك الليلة إيداناً ببدء سنة جديدة.

مرة أخرى شدّت الأجواء الاحتفالية مريم إليه. شرد ذهنها مخمّنة ما يدور في قاعة الاحتفال بالفندق، الذي لا يبعد كثيراً عن حيث كانت متواجدة في تلك اللحظة. اعتادت في الفترة الأخيرة أن تلعب لعبة التخمين هذه، فمضت بها وظنت أنه دخل القاعة الآن، كما اتفق مع عروسه حسب ما تناقلته الألسن وتناهى إلى سمعها. لقد اختار أن يقيم حفل زفاف باذخ على عكس حفلتها البسيطة. تعجبت كيف يفعل كل ما هو ضد قناعاته السابقة، أوعلى الأقل ضد ما أوهمها به. الأخرى لا تشبهها في شيء، فهي تصغره بكثير ذات ملامح

بارزة وجسدٍ مكتنز عكس مريم الضئيلة صاحبة الوجه الطفولي والملامح الناعمة التي تقاربه في العمر.

كانت تُتابعه بصمتٍ في خيالها وفي أعماقها تئنّ ألماً. تباً للتكنولوجيا التي تجعلنا نرى ما يفعلُه الآخرون دوننا فتزيد أوجاعنا وجعاً! أخبارهم تتصيّد أية فرحة محتملة فتُجهض قبل أن تكتمل، صورهم تنتشع منها مواقع التواصل الاجتماعي فتُلقنها دروساً في الصبر والتحمل. تساءلت بقهر: "يا ترى من الكاذب الذي أوهمنا أن وسائل التواصل الحديثة تُقرب بين البشر؟". قاومت رغبة مُلحة لرؤية صور زفافهم التي حتماً سيعج بها موقع الإنستغرام الذي بات مؤخراً وكأن لا همّ له سوى بث صور زواج الشاعر والكاتب الشهير. صورهما تلك كانت تحيي فيها الألم من جديد، وكأن الألم يتناسل ويتكاثر، يحاصرهما من كل الجهات فتشعر بالاختناق! حتى كلماته التي يكتبها عن الأخرى تشبه تماماً الكلمات التي كتبها عنها في يوم ما. يبدو أنه لا يدرك أنها لم ولن تنسى بأنه كتب مثيلتها فيها يوماً حتى وإن نسي الآخرون، فذاكرتها ما زالت تحتفظ بكلماته التي اعتقدت أنها كُتبت لها وحدها. لطالما آمنت بأنه عندما يهديك أحدهم نثراً أو شعراً يكتبه لك وحدك، فلا يحق له أن يهديه لغيرك! فهي تخصك وحدك! أمن النبل أن تهدي كلماتٍ أهديتها لأحدهم؟ لم تعرف أن بعض الكُتاب وبائعي الكلمات يبيحون لأنفسهم استخدام الكلمات عينها لشخصين مختلفين! الهدايا المعنوية مثلها مثل المادية لا تُسترد ولا تُهدى لآخرين! هذا ما كانت تؤمن به واليوم جازمت بسذاجة اعتقادها وربما بسذاجتها أيضاً.

في أول ليالي عام 2014 نامت ريم قريرة العين كعادتها، وبالقرب منها كانت مريم تتقلّب على سريرها وتتذكر يوم زفافها، كأنه حدث بالأمس رغم مضي زهاء أربع سنوات. كانت حفلة زفاف جميلة رغم بساطتها. تذكرت دموع أُمي موزة التي كانت تنظر نحوها من حينٍ إلى آخر، كلما كانت تقع عينيهما عليها كانت تصطنع ابتسامة خرساء عجزت عن إخفاء بكائها. نسيت أن تسألها عن سر دموعها تلك، شغلتها الفرحة واللهفة عن ذلك.

زارتها في تلك الليلة أحلامٌ متقطعة. شاهدت باقة زهور التوليب التي كانت تحملها يوم زفافها ملقاة على رصيف مزدحم، بينما تحاول انتشارها من بين أقدام المارة، ولم تفلح حتى انسحقت تماماً ولم يتبقّ منها سوى آثار باللون الوردي والأخضر متناثرة على الرصيف. في حلمٍ آخر كانت تعلق رسائلٍ عمو حسن على جدار رُسمت عليه زهور الياسمين، ثم حاولت أن تقرأ الرسائل في الحلم إلا أنها عجزت، ولم ترَ سوى خطوط وانحناءات غير مفهومة وكأنها كُتبت بلغةٍ مبهمّة. في أحد الأحلام كانت تركب لعبة الدمى الراقصة مع أختها ريم إلا أن تلك الدمى كانت باللون الأبيض والأسود والرمادي، ثم أمسكت ريم بالفرشاة وأخذت تلون كل ما حولها فتلونت الدمى بألوانٍ بهيجة كدفاتر التلوين السحري، التي كانت تُحبها في طفولتها. ثم رأت ماما أسماء وأمي موزة بين هذه الدمى، لوحت لهما بلا فائدة فأمسكت بيد ريم، تركتا اللعبة وذهبتا نحوهما، حتى في الأحلام نهرع حيث تتواجد الأمهات، إلا أنهما وقعتا في مكانٍ سحيق. صرختا بصوتٍ عالٍ: "ماما أسماء.. أمي موزة"، فلم يصلها سوى صدى صوتيهما.

-4-

مومبي

"آمن بالحب ولو كان مصدرأ للألم ولا تُغلق قلبك".

طاغور

(شاعر هندي)

ترك قلبه هناك..

لم يعرف أن الوطن حيث الأم..

أكثر من أي يوم مضى يشتاها اليوم..

متلهفٌ لسماع صوتها.. لصوت الأم حين لا يعرفه إلا من يفتقده..

يتعجب كيف يمكن أن يعيش المرء قريباً من أمه ولا يختلس لحظات من يومه ليراها!

المسافة الطويلة التي تفصله عنها تُؤلمه.. تُتعبه..

كم يود لو أنها معه..! فقط لو يستطيع!

كان ذهنه مشغولاً بها بينما يقود السيارة في طريقه إلى مركز التسوق. يعمل بشير سائقاً لدى عائلة بوسلطان منذ حوالي عشر سنوات، قضى أغلبها في خدمة زوجته الأولى موزة وبناته. اليوم في أول صباحات عام 2014 قررت مريم أن تصطحب معها أختها وزوجة أبيها للتسوق. كانت تريد أن تبتاع أدوات الرسم والألوان التي تنقصها لتبدأ بالرسم وتعلم أختها خطوات استخدام الألوان الزيتية. لعل ريم كانت الأكثر حماسة من بين الجميع لعودة مريم إلى الرسم مرة أخرى.

قرر أن يتمشى في المركز ريثما ينتظرهن في محاولة بائسة لتناسي الخبر الذي هطل عليه في الصباح الباكر كأمطار استوائية تترك أثراً لا يزول حتى مع توقفها. أخبرته أمه بأن الطبيب صارحها بضرورة إجراء عملية لشرابين القلب. يجب أن يخبر أمي موزة بأسرع وقت حتى تأذن له بأخذ إجازة طارئة.

يقدر هذه السيدة كثيراً ومتأكد من أنها ستفهم ظروفه، لم يجد أحناً منها على أبناء بوسلطان وعلى الجميع رغم أنها لم ترزق بأطفال. اعتقد في بدايات عمله عندهم أنها والدة الفتاة الجميلة المرحمة مريم، الحقيقة لولا ملامحهما المختلفة لما شك أحدهم بأنها ليست ابنتها. بعد طلاق مريم مؤخراً انقلبت هذه الفتاة على النقيض تماماً، فقد انطوت على نفسها وقلما تخرج من المنزل. اليوم بدت أكثر مرحاً وحيوية، لم يعرف السبب إلا أنه كان مرتاحاً من هذا التغيير الإيجابي.

خطفت أنظاره أساور ذهبية من النافذة الزجاجية لأحد محلات المجوهرات في المركز. دخل المحل وسأل البائع عنها. ذكرته بتلك التي باعتها أمه من أجله منذ سنين، فالأحجار الخضراء التي كانت تزيّن الأساور تشبهان كثيراً تلك التي كانت تزيّن أساورها. كانت أمه تعشق اللون الأخضر حيث تردد دوماً أن الأخضر هو لون المسلمين ولون لباس أهل الجنة. عاهد نفسه بأن يشتري لها أساور أجمل ما أن تُتاح له الظروف. تردد في شراء الأساور التي كانت باهظة الثمن فهو اليوم بحاجة إلى كل درهم ادخره لتكاليف عملية والدته. قرر

التريث رغم أن خاطراً مريباً بدأ يراوده، فما يُدريه إن كان الزمن سيجود عليه ليوفي بوعده ويشتري لها أساور تشبه تلك التي باعها يوماً من أجله؟

مرت عليه ذكريات طفولته كشريط من فيلم سريع، لم يظهر والده في أي من مشاهد. يكاد يقتصر بطولة الفيلم عليه هو ووالدته، أما البقية فلا وجود لهم سوى في مشاهد ثانوية باهتة تكاد لا تُذكر. أغلب المشاهد كانت محصورة في غرفتهم الحقيبة في أحد الأكواخ المتواضعة بحي "دهارافي"³ أحد أفقر وأقذر الأحياء في مدينة مومبي. رأى ذلك الطفل الذي كان يقضي جُل وقته إما في الدراسة أو في جمع النفايات، التي لا تخطر على بال أحد من هؤلاء الذين لم يجربوا حياة العوز والفقر، فيبيعها بروبيات زهيدة إلى شركات تعيد تدويرها. رأى فرحة ذلك الطفل وهو يضم الروبيات القليلة بين يديه جهة صدره بحرص خشية أن يفقدها. رآه يركض بين زقاق الحي بقدمين حافيتين ونصفه الأعلى عارٍ، وهو يعطي والدته تلك الروبيات بنشوة محاربٍ منتصر. رأى ذلك الطفل وهو يلصق وجهه على الحاجز الزجاجي لأحد محلات ألعاب الأطفال فيتحول الهواء الصاعد من أنفه وفمه على الزجاج إلى ضباب يتأمل من خلاله ألعاباً مبهرة، فينهره البائع ليعود أدراجه خائباً. مرة أخرى رأى الطفل يتأمل لوحات الإعلانات عند دار السينما منتظراً خروج المشاهدين ليلتقط من أحاديثهم بعض ما دار هناك ويحلم بيومٍ يستطيع أن يدخل إحداها. رآه يلعب أمام كوخهم مع أبناء الحي الذين جمعتهم الفاقة والحاجة بأقدامٍ خشنةٍ تعودت على قسوة التراب وكل ما يُعشعش بداخله. رآه يسرق من محل الخبز رغيفاً عندما يشتم صراخ جسده الواهن الجائع. رآه مريضاً تعالجه والدته بالأدوية الشعبية، لأنها لا تمتلك ثمن العلاج والأدوية الباهظة. رآه يحتضن والدته خوفاً وبرداً في مواسم المطر حينما يتسرب البلل من سقف حجرتهم الخشبية الواهنة.

لعل أجمل ما في ذلك الحي المكتظ بالسكان أن الناس يعيشون فيه بتناغمٍ وسلام، رغم تنوع الهويات الدينية واللغوية والطبقية. يبدو أن ظروف الحياة القاسية لها دور إيجابي واضح في تمكين الناس من التعايش رغم أنه يضم بين جنباته هندوساً ومسلمين ومسيحيين وبوذيين. مؤخراً اكتسب ذلك الحي شهرة عالمية إثر عرض فيلم "المليونير

المتشرد"4 الفائز بعدة جوائز "أوسكار" وجوائز أخرى عالمية، الأمر الذي سلط الأضواء على معاناة سكانها. مدينة مومبي رغم العوز تجد أنّ سكانها من أكثر الناس ابتكاراً في مسابقة ظروفهم القاسية ما أكسبها فرادة وتميّزاً. علاقة بشير ملتبسة مع مدينته، عندما يكون فيها لا يطيقها وما إن يبتعد عنها يشواق إليها. علاقة غريبة جداً متقلبة بين الكراهية والحب، النفور والرغبة كمدّ وجزر لم يفهمها قط.

أليس غريباً أن تتأرجح عواطفنا بين نقيضين؟

الحب والكراهية..

فتارة نحب ذات الشيء وتارة نكرهه..

رغم أن الشيء هو ذاته لم يتغيّر..

ربما مشاعرنا هي التي تتغيّر..

فالمرء كتلة من المشاعر المتقلّبة..

كالغمامة تنتقل من مكانٍ إلى آخر ومن حالٍ لحال..

كما كان حال مريم في ذلك اليوم، لقد قررت فجأة العودة إلى الرسم بعد فترة انقطاع طويلة، دون سابق إنذار شعرت بتحولٍ مفاجئ. لم تكن تطيق الرسم، واليوم لا تطيق صبراً على العودة إلى المنزل لتمزج ألوانها وزيوته وتبدأ برسم لوحة جديدة، وتكمل قراءة أوراق عمو حسن.

ما إن وصلت المنزل هرعت نحو أوراقها، فتحت الرسالة التي لم تنته منها الليلة الماضية، فقرأت ما تبقى من الرسالة:

لا يعرف الإنسان أين سينتهي به المقام؟

هل في وطن أجداده أم في بلادٍ غريبة لم يتخيّل أن القدر سيحمّله إليها؟

مشيت نحو قدري.. لم أكن أعرف وجهتي.. ما كنت أعرفه جيّداً أنني أريد الارتحال بعيداً..
حيث لا يعرفني أحد.. ولا أعرف أحداً.. كنت مسافراً بلا هوية ولا عنوان.. فوليت وجهي
نحو اسطنبول!

أعادت لف الرسالة بينما كانت تتساءل ماذا يريد منها هذا المسافر يا ترى؟ ما شأنها بسفره
وهروبه وهي التي لا تمت إليه بأية صلة؟ قررت أن تكمل في المساء قراءة الرسالة الثانية
بعد أن تقضي فترة ما بعد الظهر لتلقين ريم مهارات الرسم الأساسية بالألوان الزيتية.

اسطنبول

"لأنني أحكي ما يشعر به قلبي، وأخرجه بألوان ذكرياتي وآلامي، يبدو ما أحكيه مثل نقش يرافق ما حدث لي".

أورهان باموق

(روائي تركي)

أمسكت بالفرشاة قريباً من المنتصف محكمة قبضتها عليها حتى تُسَيِّرُها بسهولة كما علمتها أختها مريم. بعد خمس دقائق شعرت أصابعها بالإرهاك، بدت لها المحاولة عبثية ومتعبة. مهارة الرسم ليست سهلة بتاتاً كما توقعتها، فكيف لمن هي مثلها تحمل في جيناتها هذا الصبغي الزائد، كادت أن تستسلم إلا أنها شعرت صوتاً بداخلها يقول:

- ريم.. ما بك صديقتي؟

- لا أستطيع .. أصابعي تتوقف بعد دقائق من الرسم.. وضعت يدي عدة مرات على اللوحة حيث الألوان قبل أن تجف فأفسدت كل شيء.. تركتني أختي لوحدي .. سأتوقف.

- ريم.. عندما تمتلكين الموهبة وتحبين الرسم سيهون كل شيء بالتعلم والصبر.. أنتِ تمتلكين الموهبة دون شك.. أصابعك هي أصابع فنان إلا أنها بحاجة إلى تدريب وتعود.

- لا .. لا أستطيع .. أنا متعبة.

- لا شيء يأتي بسهولة.

- ماذا؟ ماذا تقصدين؟

- حسناً.. هل تعلمين أن أغلب الرسامين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بسهولة، الفنان الحقيقي يتغلب على ضعفه ونواقصه وإعاقاته، حتى عظماء الرسامين عانوا من الأمراض مثل دافنشي ومايكل أنجلو وغيرهم.

- حقاً!

- بلى عزيزتي.. عشرات الرسامين من مختلف دول العالم قدموا قصصاً إنسانية رائعة في التحدي، رسموا بفرشاة العزيمة ومنحوها ألوان الأمل. هنالك فنانون مكفوفون اكتسبوا شهرة واسعة، الحقيقة أن إبداعات الرسامين لم تقتصر على المكفوفين فقط بل شملت آخرين فقدوا أطرافهم، واستعاضوا عن آمالهم بأقدامهم التي حملت الإحساس إلى الفرشاة ومنها إلى اللوحات.

- كيف يرسم! لكن.. كيف؟

- من خلال الوصف!

- ماذا؟

- الوصف! الفنان البارِع حتى وإن لا يرى النور في حياته إلا أن بإمكانه الرسم من خلال الوصف، في تلك اللحظة تحديداً يفقد الإحساس بعدم الرؤية. الفنان الحقيقي يا ريم يتكَيَّف مع ظروفه مهما كانت، حتى لو عضلات أصابعك ليست قوية كفاية بإمكانك تدريبها.. أنت رسامة حقيقية.. سأساعدك.. فقط تغلّبي على ضعفك!

- مممم .. سأحاول. قالت ذلك بينما كانت تنظر إلى الفرشاة..

- العفو أيتها الرسامة الموهوبة صاحبة العينين المسحوبتين.

هكذا ردت عليها الفرشاة، لقد سمعت صوتها يرن بأذنيها بل بقلبها، فعادت إلى الرسم بحماس.

هذه المرة لم تستسلم ريم للتعب. تركت أصابعها تنساب على اللوحة بكل طواعية، تارة كانت تحرك الفرشاة بالأصابع وحدها وتارة بحركة الرسغ كلها. شعرت وكأن الفرشاة تتحرك معها، تساعدها، تطاوعها في الانسياب.

في الغرفة المجاورة فتحت مريم الورقة الثانية من أوراق عمو حسن، تريد أن تعرف ما يريد منها هذا الرجل الغريب الأطوار. ما إن بدأت بالقراءة حتى ازداد خفقان قلبها لسبب تجهله.

الرسالة الثانية

أعرف أنك تتممين الآن في شرك بغضب بينما تقرئين كلماتي..

وماذا بعد؟

ماذا يريد مني؟

إلى أين يريد أن يصل؟

رويدك..

ارحمي رجلاً فقد كل شيء.. لم يتبقّ لديه أي شيء..

كل ما تبقى لديه حفنة ذكريات يقات بها ليكمل ما تبقى له من العمر، وهو ليس بالكثير كما يتوقع الأطباء، سنتان أو ثلاث على أكثر تقدير! قد تطول أو تقصر لكن النهاية محتمة على الجميع طال أم قصرت لتبقى مشيئة الله سبحانه وتعالى..

حسناً لنعود إلى وجهتي.. إلى اسطنبول..

كانت رحلتي إليها هي الأصعب، قد يكون لأنني كنت حينها حديث العهد على الفراق، كطفلٍ فارق أمه قبل أوانه وعليه التأقلم عاجلاً أم آجلاً، أحببت المدينة من أول نظرة! لم أشعر بالغربة فيها. أياكون لذلك علاقة بأصول عائلة جدتي من جهة والدتي التي يقال إنها أتت من شرق تركيا إبان السلطنة العثمانية؟ أم لأنها المرة الأولى التي أغادر فيها حدود وطني؟ أم لأنها مدينة شرقية تشبهنا رغم أنها تقع في القارة الأوروبية؟ ربما شيء من ذلك كله..

وصلتها مفلساً.. معدماً.. فأوتني..

بقيت فيها عاماً ونيّف، كنت محظوظاً بأن وجدت عملاً ما إن وصلتها، فقد عملت نادلاً في أحد المطاعم التركية التقليدية التي يرتادها السياح العرب والخليجيون، بسبب حاجة صاحبها إلى شخص يتحدث اللغة العربية. عملت لساعاتٍ إضافية طمعاً في الحصول على المزيد من المال، بالرغم من أن ساعات العمل كانت مرهقة إلا أنني لم أشتك أو أتذمر يوماً، فقد كنت حينها شاباً مفعماً بالصحة والطموح.

العمل المضي لم يترك لي مجالاً لكي أحنّ إلى الماضي الذي تركته، مكالمات مقتضبة متقطعة ورسائل رتيبة هما كل ما ربطاني بمن تركتهم.

هنالك تعرفت للمرة الأولى على قواعد وأصول الخط العربي من عبد القادر الكردي أحد زملائي الذين كانوا يتشاركون معي الغرفة. كان عبد القادر القادم من العراق، الذي سيصبح لاحقاً من أعز أصدقائي فناناً وخطاطاً، هرب من الحرب التي كانت مشتعلة في بلاده طمعاً بحياة أكثر أماناً. اعتاد أن يقضي الليل في رسم لوحاتٍ قرآنية بديعة، وفي اليوم التالي يبيعها بأسعارٍ زهيدة. كان هدفه أن يجمع المال بأسرع وقت ليهاجر إلى مدينة لندن حيث سبقه إليها بعض أقربائه. في البداية كنت أراقبه ثم بدأت أساعده، ثم اكتشفت حبي لفن الخط العربي فبدأت أتعلمه. لاحقاً سيصبح الخيط الذي يربطني بعروبتي وهويتي،

سيكون رفيقي وسلواي في أيامي الأخيرة، لأترك إرثاً زاخراً من لوحاتٍ بديعة في الفن العربي، ربما تكون كل إرثي من بعدي.

كلانا سيرحل في الفترة ذاتها، هو إلى لندن حيث كان يريد وأنا إلى حيث قادتني الصدفة. بعض الصدف تنتقينا انتقاءً محكماً فتأتي في الوقت والزمن المناسبين، ولو أنها تأخرت أو تقدمت قليلاً لما انجرفنا نحوها. أحد زملائي في العمل أراد أن يهاجر إلى إحدى دول أوروبا الشرقية، اشترى تذكرتين له ولصديقه، ولكن قبل السفر بأيام غير صاحبه رأيه فكنت أنا البديل. في حياة كل منا صدف غير متوقعة بإمكانها أن تُغيّر كل ما هو متوقع. في ذلك اليوم أخذتني الصدفة إلى حيث شئت وكنت أوهن من أن أقاوم. فشددت رحالي إلى حيث أخذتني أقداري.

لقت مريم الرسالة بعناية وأرجعتها كما كانت تماماً. تذكرت مدينة اسطنبول التي وقعت في حبها دون سبب واضح. هنالك ما شدّها إلى هذه المدينة لا تعرف كنهه، وكأن جزءاً منها ينتمي إلى تلك الرقعة من العالم. شدّت المدينة العتيقة حواسها الخمس، من رائحة السجاد الشرقي والتوابل المبهرة في أسواقها وبازاراتها القديمة، نداءات مآذنها الشامخة، نكهة شايبها بالسكر وقهوتها المرة، زرقه بوسفورها واتساعه، شوارعها المزدهمة وأزقتها المكتظة بأصنافٍ من البشر، وملمس حلوى راحة الحلقوم الطري في فمها. تكاد تجزم بأن شيئاً ما يربطها بهذه المدينة، أو لعلها من فرط حبها لهذه المدينة تتمنى لو أن هنالك فعلاً ما يربطها بها. هنا تذكرت أنها تركت ريم لوحدها، فأسرعت الخطى نحو غرفتها لترى ماذا فعلت بها الألوان في غيابها.

- ريم!

- نعم.

- هل أنتِ من رسمت هذه؟

أشارت مريم إلى لوحة رائعة الجمال لزهرات ياسمين. زهرة تتدلى وأخرى تتلوى، زهرة تنبض حياة وأخرى توشك على الفناء، زهرة منغلقة على نفسها وأخرى تفتحت على كل ما حولها، زهرة مندهشة وأخرى منكمشة، زهرة بياضها ساطع وأخرى تشوبها شائبة واضحة.

أطرقت ريم رأسها وأجابت بخجل:

- نعم.. أنا.. لكنني..

- حقاً!

- لم لم تعجبك! لم أكملها!

- أعرف أنها ليست مكتملة، لكنها رائعة!

- ماذا؟

- ألا ترين كم هي مذهشة؟ بل هي غاية في الروعة! لا أصدق!

- أمممم.

- أنت موهوبة!

- أنا؟

- أنت موهوبة جداً!

- أنا.. حقاً! أنا!

الحقيقة أن مريم اندهشت من جمال وإتقان اللوحة أمامها. أدركت حينها أن موهبة أختها الأصغر ليست عادية رغم ظروفها، وعليها أن تُنمّيها. خالجها شعور بالخجل من نفسها، لأنها

أهملت أختها الصغيرة التي خطت منذ فترة نحو مرحلة المراهقة الحساسة. بدأت تلاحظ عليها في الآونة الأخيرة تصرفاً غريباً استرعى انتباهها، حيث رأتها عدة مرات تتحدث مع نفسها أو مع الأشياء من حولها بكلماتٍ غير مفهومة. يبدو أنها ابتعدت عن أختها الوحيدة في السنوات الأخيرة منذ زواجها وطلاقها. ليس عنها فقط بل عن ماما أسماء وأمي موزة، عن إخوانها، عن الجميع بمن فيهم نفسها، نعم عن نفسها. فهي منذ عودتها إلى منزل ذويها عقب انفصالها ظلت منزوية، منغلقة على نفسها، تجتر ذكرياتها فتزداد عزلة يوماً بعد آخر، لا همّ لها سوى متابعة أخباره منذ انفصالهما. كانت متعلّقة ببصيص أملٍ لعله يعود إليها، ولو كسرابٍ كاذبٍ يروي به المسافر الهالك عطشه، ولكن مساء أمس أغرقها خبر زواجه، فانطفأ أي أثرٍ للأمل، تاركاً لها الرماد، لا شيء سوى الرماد.

تساءلت بمرارة: "وهل ذلك حقاً ما تريد؟ أن تعود إليه؟". كلا، لم تكن تريد ذلك، بل كانت تريد استعادة كبريائها. تريد أن تلفظه كما لفظها، ترفضه، ترفسه، كنكرة، كشيءٍ فائض عن حاجتها، لا تريده. حلمت مراراً بأنه يتوسل إليها بأن تعود وهي ترفض، يتمنى وصلها وهي تمنع. حلمت وحلمت.. ولم يتحقق ذلك الحلم العصي الخفي الذي ظل يراودها. كل ما حدث أنها ازدادت عزلة وانطواء في حين تمادت أحلامها وآمالها في إيهاها وإيلامها في الوقت ذاته.

مؤلّم أن يتخلى عنك من تخليت عن الجميع من أجله..

مؤلّم أن تكتشف كيف يهاجر الحب من وطن حبيبه..

مؤلّم أن تسافر المشاعر من قلبٍ إلى آخر دون إذن أصحابها..

والأشدّ ألماً أن تكون أنت نفسك شاهداً على كل ذلك..

مطلعاً على ألمك وخبيراً في نقاط ضعفك..

اليوم أيقنت مريم كم كانت مخطئة! أعطت ألمها اهتماماً أكثر مما يستحقه، أولت انفصالها حجماً أكبر من حجمه الحقيقي. لم تستمع إلى نصيحة أحد، اكتفت بتوسيع دائرة الضيق والحزن من حولها، وكأنه آخر الرجال الذين تركوا زوجاتهم من أجل امرأة أخرى، وكأنها آخر النساء التي تركهن رجالهن.

استطاعت أختها المصابة بـ"متلازمة داون" أن تُغيّرَها في لحظة، أن تُعيد إليها رشدها. إنها تحمل في جيناتها متلازمة الإرادة، متلازمة السعادة، متلازمة الأمل. من الأحمق الذي أطلق عليها "متلازمة داون"؟ يقال لأن الطبيب البريطاني جون لانغدون داون⁵ كان أول من اكتشف صفات هذه المتلازمة فحصل على براءة الاسم، وماذا عن اكتشافاتهم؟ اليوم قد أعادت ريم إليها نفسها، إلى ذاتها لتكتشفها من جديد، لتعود كما كانت، بل أفضل بقليل وأنضج بكثير. تمضي إلى وجهتها دون أن يُعيقها النظر إلى الخلف، دون أن تتعثر بالأمس، تمضي وتبتسم للماضي. هل يعني هذا أنها ستسمى بمتلازمة ريم؟ ما المانع؟ فليكن. حملت أدراجها، ونزلت عن درجات السلم نحو الأسفل بخطواتٍ سريعة واثقة. هرعت إلى أمي موزة وماما أسماء لتخبرهما عن زهرات الياسمين التي أيقظت حواسها للتو.

الكويت

"إن الذي لا يستطيع النظر وراءه إلى المكان الذي جاء منه، سوف لن يصل إلى وجهته أبداً".

سعود السنعوسي

(روائي كويتي)

- ما هذا الكتاب أمي موزة؟ ماذا تقرئين؟

- "ساق البامبو".

- "ساق البامبو" اسمٌ غريب.

- روايةٌ كتبها روائي كويتي شاب اسمه سعود السنعوسي، فازت روايته بجائزة البوكر. يتحدث عن معاناة وتشتت شاب كويتي من أم فلبينية.

- يبدو ممتعاً!

- ومحزناً أيضاً! لكن منذ متى تهتمين بالقراءة؟

- منذ الأمس.. أقصد منذ فترة إلا أنني عدت مجدداً إلى القراءة بالأمس.. أيقنت أن القراءة بإمكانها أن تأخذنا إلى عالمٍ آخر.. مكانٍ آخر.. مدينةٍ أخرى.. قد تشبهنا أو لا تشبهنا.. تعجبنا أو لا تعجبنا.. إلا أنها تُحلق بنا عالياً.. عالياً جداً.

- بالفعل.. لقد أخذني السنعوسي معه إلى مدينته.. إلى الكويت.. ثم إلى الفلبين.. أفضل الكتابات تلك التي تُسافر برفقتها.. نعيش معها.. وما إن ننتهي منها نشعر وكأن حياة عشناها تركناها هناك.. نحن نعيش حيواتٍ أخرى بين طيات الأوراق.. حياة جربناها ولم نعشها.. حياة أخذتنا إلى عوالم أوسع رغم أنها لم تخرج من حيز الأبدية.

- حياة جربناها ولم نعشها.. كم أحببت هذا التشبيه! أريد أن أستعير منك هذه الحياة ما إن تنتهي منها، فالكتب كما قلتِ حيواتٍ لم نعشها.

- حسناً سأعيرك الكتاب بشرط أن أسترده ما إن تنتهي منه.. على فكرة كلمني اليوم سائقنا بشير، يريد أن يسافر إلى الهند، والدته بحاجة إلى إجراء عملية طارئة في القلب.

- آه المسكين.. متى يسافر؟

- قريباً.. على الأرجح خلال الأيام القادمة.. كلمت سكرتير والدك ليجد له تذكرة بأسرع وقت قبل أن تعرف والدتك فتعارض سفره.

- لا أعرف لماذا تشك ماما أسماء في كل شيء وكل شخص؟

- إنها أسماء التي لن تتغير إلا أن قلبها الطيب يغفر لها ذلك.

- أريد أن أساعد بشير بمبلغٍ من مصروفي، لا بد وأنه في حاجة إلى المساعدة.

- حسناً تفعلين يا ابنتي، العطاء شكل من أشكال السعادة يجهله الكثيرون.. نسيت أن أخبرك خميني من سيزورنا اليوم؟

- ممم.. من؟

- فيصل.

- فيصل؟! -

عادت ذاكرتها إلى الوراء، عندما كانت أحلامها غضة مثلها وهمومها لا تخرج أبعد من عالمها الصغير. في منزلهم الكبير تعدو خلفه في الممرات المكسوة بالسجاد الأخضر التي تُذكرها بالعروق المنسوجة على ظاهر كف جدتها. تشعر وكأنها في منتصف لعبة المتاهة لا تجرؤ على العودة ولا تستطيع أن تجد طريق الخروج إلا معه. تحرص أن لا تتركه يختفي عن أنظارها إلى أن تجد الخلاص، ما إن تصل المصعد حتى تعرف أن اللعبة انتهت. تركب معه المصعد وتتأمل الباب الزجاجي حينما يُغلق، فتعبر عتمة مؤقتة تشبه تلك التي تسبق بداية الأفلام في دور السينما، بعدها بثوانٍ يُفتح الباب فتبدأ لعبة المتاهة من جديد. عندما كبرت اكتشفت أن الحياة عبارة عن متاهة كبيرة، علينا أن نجد بداخلها الطريق لوحدها، بلى لوحدها. قد نضلّ أحياناً في دروبها، وقد نصل إلى طرقٍ مسدودة، وربما نتخبط بين حينٍ وآخر وقد نتوقف أحياناً، لكن علينا المضي نحو طريق الخلاص فالعودة غير متاحة وكذلك الدليل.

كان دليلها في طفولتها. يصعب عليها أن تتذكر تلك الأيام دونه. لم تجمعهم رابطة دم بل جمعتهم رابطة أقوى، جمعتهم أمي موزة. كان فيصل ابن أخت موزة وفي الوقت ذاته أقرب أبناء أختها إليها، أما مريم فهي ابنة زوجة زوجها وبمثابة ابنتها. اعتادت أمي موزة أن تأخذها معها في زياراتها المتتالية إلى بيت أختها. يتشابهان كالإخوة بل أكثر قليلاً، ولدا في السنة ذاتها وفي الشهر ذاته إلا أنها ولدت في أوله وهو في آخره، أي يفصلهما ثمانية وعشرون يوماً. هواياتهم واهتماماتهم متشابهة، أغنياتهم المفضلة هي ذاتها، يفضلون الأكلات ذاتها، الألوان نفسها، يتشاركان الكثير من الأسرار. كانت علاقتهم قوية وحميمية جداً، كعلاقة أخوة وصدقة كما اعتقدت حينها.

لم ينظر فيصل إلى علاقتهم من الزاوية ذاتها. كانت بالنسبة إليه كل شيء، الأخت، القريبة، البعيدة، الصديقة، ولاحقاً الحبيبة والزوجة التي يتمناها. حاول مراراً أن يوضح لها أن حبه لها هو حب رجل لامرأة يريد لها لنفسه، حاول أن يثير غيرتها باختراع قصص وحكايات

واهية لمغامراتٍ لم تحدث. في النهاية انصاع إلى قلبه بعد أن فشلت محاولاته لإفهامها، فأخبر أمي موزة برغبته الزواج منها وهنا حدث ما لم يخطر له أبداً.

لم يعرف أن شدة القرب مثله مثل شدة البعد قد يُعميك عن رؤية من تُحب..

أحياناً..

الوضوح يُبعد..

الغموض يجذب..

عندما رفضت عرضه وحبه رحل عن حياتها للأبد. لم تتوقع ذلك ولم تتصور أنها ستفتقده إلى هذا الحد. كثيراً ما اشتاقت إلى حديثه واحتاجت إلى نصائحه. رغم أن رحيله خَلَفَ هوة عميقة من الفراغ في أعماقها، إلا أنها لم تستطع مبادلته الحب، على الأقل حينها. كان الآخر هو من حظي بحبها، اعتادت قراءة قصائده ومقالاته في عدد من الصحف والمجلات المرموقة. أحبته من كلماته، وتعلقت به أكثر بعد أن رأته في إحدى الأمسيات الثقافية التي كان مشاركاً فيها. وجدته مثالياً كمقالاته، مبدعاً كأفكاره، حكيماً ككلماته، ملائكياً كهمساته.

لم تعرف أن الثقافة لا تعني كم كتاباً قرأت أو كم حكمة حفظت..

الثقافة تكمن في تعاملك الإنساني مع الآخرين..

الثقافة هي ما نفعله لا ما نقرؤه!

خسر فيصل أمام الآخر بفضل المغادرة بصمت. رحل عن حياتها وأوصد الأبواب خلفه كما دخلها بهدوء.

-7-

بوسطن

"لقد تعلّمت بأن الناس سوف ينسون كل ما قلته لهم، كما أنهم سوف ينسون كل ما فعلته من أجلهم، لكنهم أبداً لن ينسوا كيف جعلتهم يشعرون".

مايا أنجيلو

(شاعرة من الولايات المتحدة)

"رحلتُ لأهرب من حب كبرث معه وكبر معي.. لأنساه.. أتناساه.. أو أنسى نفسي.. هل تعرف يا صديقي معنى أن تستفيق مرة واحدة وتكتشف أن كل ما كنت تملكه ما هو إلا مجرد حلم؟ أضغات أحلام؟ أو سمّه ما شئت!

كبرنا معاً.. ضحكنا معاً.. بكينا معاً.. لعبنا معاً.. مرضنا معاً.. تبادلنا الكثير من الأسرار والآمال.. حتى الجامعة اخترناها معاً.. في سنتنا الجامعية الثالثة طلبتها للزواج.. كنت متأكداً من موافقتها.. كان ردها أنني بالنسبة إليها أخ.. صديق.. أي شيء غير زوج أو حبيب.. جاء ردها كصفةٍ لم أتوقعها.. مفاجئة.. قاسية.. مؤلمة.. غادرتُ المكان لعلها تغادرني.. صعبٌ يا صديقي أن تحاول النسيان فتكتشف أن الأماكن كلها تُذكرك بمن تود أن تنساه.. فالمكان يا صاحبي له ذاكرةٍ مراوغةٍ يذكرك بكل ما تسعى ذاكرتك لمحوه.. يقودها حيث لا تريد كنعجةٍ تُساق دون وعي خلف راعيها.

رحلتُ حاملاً معي بقايا كبريائي ونصف ذاكرتي.. اخترت من المدن أبعدّها ليسهل علاج النسيان.. تذكّر أنك عندما تحاول أن تنسى ارحل دفعة واحدة دون أخذ رشقاتٍ من الماضي.. لا تنظر إلى الوراء.. ارحل بقلبٍ حديدي دون أن يحنّ قلبك.. فقط امض..

كانت بوسطن بالنسبة إلى ذاكرتي بلا هوية.. ناصعة البياض دون أن يقتحمها أي لونٍ من ألوان الذكريات.. مدينةٌ فتيةٌ لم يطأها أي شيء من الماضي.

النسيان، هاجس النسيان يا صاحبي أحياناً هو سبب نجاحاتنا، نحاول أن ننسى فننغمس في عمل شيء ما، نغرق فيه إلى حدود الإبداع، ثم يتساءل الآخرون عن سر تميّزك، فتخبرهم بالحجج المألوفة التي تُقال في هذه الحالات، الإخلاص، المثابرة، العزيمة، وغيرها.. لا تخبرهم بسرك الخفيّ كوصفةٍ سحريةٍ يصفها طبيب ماهر، لا تخبرهم أن السر يكمن في هاجس النسيان، ليس النسيان فحسب بل الغرق فيه إلى حد التماهي معه، حتى تعتقد أنك ما كنت يوماً مريضاً بذاك الداء، فتتعافى وتصبح أكثر قوة مما مضى".

ذلك ما باح به فيصل إلى صديقه المقرب بعد حصوله على شهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة هارفارد بتفوقٍ حسده عليه زملاؤه. تهامس الجميع كيف لهذا الشاب الخجول القادم من دولةٍ ناشئةٍ أن يتقدم على زملائه القادمين من دولٍ مخضمةٍ في العلم والتقدم. لم يعرفوا أن تقدم وتطور أي دولة وتفوق أبنائها لا يقاس بالسنين، فكم من دولةٍ تملك ماضياً عظيماً غرقت في وحل الفساد والبطالة والفاقة! وكم من دولةٍ حديثةٍ ناشئةٍ تنعم بازدهارٍ وتقدمٍ ومجد!

اليوم.. قرر فيصل زيارة خالته موزة المقربة إلى قلبه، رغم علمه باحتمال وجود مريم معها في المنزل. في الفترة الأخيرة عمد أن يتجنب زيارتهم أثناء تواجدها، لماذا لم يعر الأمر اهتماماً هذه المرة؟ ما الذي تغيّر فيه الآن، ما جعله غير مهتم بتواجد مريم من عدمه؟

لقد تغيّرت شخصيته تماماً، أصبح ذا شخصية أكثر تفرداً وثقةً بنفسه. نسي خيبته في حبه الوحيد أو تناساها. لم يعد يؤرقه ذكر اسمها أو ذكرى حكايتهما، يأتي اليوم فيصل آخرٍ مختلفاً، فيُربك مريم بعد أن كان يرتبك أمامها.

هذا ما حدث. ما إن رآته حتى ارتبكت، تسارعت نبضات قلبها، تلعثمت، حاولت أن تهدئ من ردة فعل جسدها غير المتوقعة بلا فائدة. تشاغلّت بإعداد طاولة العشاء هرباً من التواجد

معه في المكان ذاته. تجاهلت سيل ذكرياتهما معاً، بينما كانت تعيد ترتيب الطاولة للمرة الخامسة أو ربما السادسة، لا تذكر. غيّرت من مواضع الصحن وترتيب الملاعق والشوك أكثر من مرة، تأكدت من التفاصيل الدقيقة على غير عاداتها. ندمت لأنها لم تولِ هندامها الاهتمام والعناية اللازمين، فحاولت أن ترتب هيئتها سريعاً من خلال المرآة المعلقة في حجرة الطعام. كانت تنظر نحوه من الباب نصف المفتوح بينما يتحدث إلى خالته، التقت نظراتهما في ثانيةٍ بدت لها دهراً. أشاحت بوجهها سريعاً، اضطربت، خجلت، شعرت بدفءٍ يتسلق وجنتيها إلى أذنيها وبقطرات العرق تنساب على قوس ظهرها المنحني على الطاولة. تساءلت بقلق: ما الذي تغيّر يا ترى؟ خشيت من الفكرة التي بدأت تراودها: هل كانت بحاجةٍ إلى أن يبتعد عنها ثماني سنوات لتكتشف أنها تحبه؟ تيقنت اليوم من صحة مقولة سمعتها للعقاد: "قد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب". لماذا نكتشف مشاعرنا متأخراً؟ أيعلّمنا الزمن أم هو يعاندنا؟

براتيسلافا

"لغة الصدق سهلة دائماً"

(مثل سلوفاكي)

خرجت من المكان لعل ذاكرتها تتوقف عن التماذي بالانجراف نحو الماضي، كسد منيع أوقفها من التدفق. ذاكرتها اللئيمة التي تترصد أخطاءها وتذكرها دوماً بقراراتها غير الصائبة أو اختياراتها غير الموفقة. تأملت العلبة الخشبية الساحرة، لا شيء قادر على إلهائها عما حولها في تلك اللحظة سواها. أخرجت الرسالة الثالثة وبدأت تقرأ بفضول.

الرسالة الثالثة

أما زلت تلتمين أزهار الياسمين وتتساءلين..

عن كلماتي وتبحين؟

عن أي سر أخفيه وأي قدر حزين ينام في صدري؟

أنا لا أريد شيئاً سوى أن أكون صادقاً معك.. ومع نفسي..

أكتب قبل قرار الحياة بأن تقسو عليّ وتسلبني وجودي..

أكتب قبل أن يدركني الزمن فتضيع حواسي..

أكتب قبل أن أغادر هذا العالم دون أن أشق طريقني نحو الغفران..

أكتب قبل أن أودع أحبائي ويضيع اسمي في متهاتات النسيان..

أكتب وأكتب وأكتب..

وأنت ما زلت تتساءلين!

وتتمتمين..

لحناً حزيناً كأيامي..

بينما أنا أختنق شوقاً وحنيناً..

حسناً لاكمل حكايتي..

في طريقني إلى تشيكوسلوفاكيا كما كانت تسمى آنذاك في الثمانينيات من القرن الماضي، ظل تساؤل يهزني بين حين وآخر تماماً، كذلك القطار الذي كان يهتز كل حين بينما يقلني نحو منفاي الجديد. تساءلت: "أي قدر أتى بي إلى هنا؟ أي قدر رسم طريقني نحو هذه البقعة من العالم؟ بقعة لا تشبهني ولا أشبهها". لم أعرف أن الإنسان يشبه أقداره.

كم كانت تشبهني مدينة براتيسلافا، المدينة التي اخترتها أو اختارتني! كل تفاصيلي فيها كانت تمشي على وتيرة واحدة.. مملة.. روتينية.. هادئة.. حتى انفصال الدولة التي استوطنتها كان هادئاً روتينياً ومثالياً. حيث انفصلت عام 1993 إلى دولتين: تشيك وسلوفاكيا بعد الحركة التي سُميت بـ"الطلاق المخملي"، وقبل هذا انشقت تشيكوسلوفاكيا من الاتحاد السوفييتي عام 1989 من خلال الثورة المخملية المسالمة.. حينئذٍ أصبحت مواطناً سلوفاكياً بطبيعة الحال.

بعد فترة من الهجرة بدأت أعتاد على نمط حياتي الجديد، تنقلت من عملٍ إلى آخر. تعلمت لغتهم بعد فترة قصيرة نسبياً ويرجع الفضل إلى أنا التي تزوجتها لاحقاً. تكبرني أنا بحوالي عشر سنين، شقراء ممتلئة مريحة الملامح لولا وجودها معي في تلك المرحلة لأصبحت حياتي أصعب بكثير. كانت تعمل في المصحة الشهيرة في منطقة بشتني شرقي سلوفاكيا التي يتوافد إليها السياح من أرجاء العالم، ونظراً لكون نسبة كبيرة من مرتاديها عرباً ومن دول الخليج بشكلٍ خاص عملت سائقاً ومرشداً سياحياً لهم. بعد فترة من الزمن استطعت أن أفتح مكتباً لخدمات السفر والسياحة، اعتمدت على السياح العرب القادمين إلى مصحات سلوفاكيا في فصل الصيف وفي الشتاء على السلوفاكيين الراغبين في السفر إلى مدنٍ مشمسةٍ مطلةٍ على البحر الذي يفتقده السلوفاك في بلادهم مثل الغردقة والإسكندرية، إذ لا بحر في بلادهم.

جمعتني بأنا علاقة ودية صادقة، لا لم يكن حباً بالمعنى المتعارف عليه، كلانا كان يبحث في الآخر عما يفتقده. كانت تبحث عن الشباب الذي بدأ يتسرّب من بين يديها، وكنث أبحث عن الاستقرار الذي هرب مني أو بالأصح هربث منه. لا أريد أن أقول إنها علاقة مصلحة بل أستطيع الجزم أنها علاقة تغلّبت عليها قوة العقل على العاطفة.

ما أشقى القلب حينما يتغلّب عليه العقل!

ما أضعف العقل حينما يتغلّب عليه القلب!

ويبقى الصراع بينهما أزلياً.. ونبقى نحن في حيرة من أمرنا!

هل نترك العقل يختار أم القلب؟

أم كليهما؟

ليس العقل سيئاً دوماً في اختياراته كما دأب الجميع على إدانته. تأقلمت مع حياتي الجديدة، عشنا حياة هادئة لم تصادفنا الكثير من المشاكل، كانت هادئة مستقرة تمشي على

وتيرة واحدة أجمل ما فيها هو قدوم طفلنا آدم في سنتنا الأولى من الزواج.

اكتشفت أن الغربية كانت بالنسبة إليّ مرهماً للنسيان، ولم أعرف أن المراهم يزول تأثيرها ما إن تتوقف عن استخدامها.

رحلت أنا من حياتي بهدوء كما دخلتها بهدوء. توفيت بعد أن تم تشخيص مرضها بعدة شهور، وكأنها لم تشأ أن تُحملني عبئاً إضافياً بإطالة فترة عجزها ومرضها. أعترف أنني أحببتها أكثر بعد رحيلها، أو لأن أكثر نزاهة لقد اكتشفت أنني أحبها أكثر مما كنت أتصور، وأنها تحملتني أكثر مما كنت أعتقد، وساعدتني أكثر مما كنت أستحق.

رحلت أنا وأتى برحيلها تساؤل غريب بدأ يلح عليّ..

لماذا نشعر بقيمة أحبائنا بعد غروب شمسهم من حياتنا؟

هل لأننا حين نفتقد نورهم تزداد حياتنا قتامة..

فلا يسع أحدهم أن يضيء مكانه..

فيبقى مكانهم خاوياً ذابلاً؟

أتساءل..

لِمَ لا نكتفي بمن يتبقى حولنا ونعتاد على الظلام الذي يخلفه الراحلون؟

ليست كل الأنوار متشابهة..

فهناك نورٌ يَمَسُّك بشكل خاص..

نجمٌ يخصك..

لك..

منك..

إليك..

لذلك أتيت أبحث عنك..

قبل أن أنطفئ..

فلا أجد نوري ولا هو يجدني..

فأغدو ظلاماً بائساً يائساً لا يفتقدني أحدا!

كنجمة أفلة.. أئمة..

ما إن أكملت قراءة الرسالة حتى بدأ النعاس يتسرّب إلى عينيها رويداً رويداً. رأت في المنام بأنها تطير نحو نجمة بعيدة مضيئة، وما إن تصل حتى تجدها مظلمة، فجأة ترى عمو حسن فيعود النور إلى المكان. تحاول التحدث إليه فلا يستجيب، وكأنه لا يسمع، يذهب، يرحل، تحاول أن تتبعه، يغيب، ينطفئ، يعود الظلام. بعد قليل تلاحظ أن المكان بدأ يستعيد بعضاً من بريقه من خلال نجوماتٍ منيراتٍ، فتخف وحشة المكان تدريجياً. ثمعن النظر في النجمات، فيتراءى لها أنها تشاهد ريم بصورة إحدى النجمات وهي تلوح لها. نجمة أخرى تشبه أمي موزة، وأخرى كأنها وجه والدتها، إخوتها الذكور أيضاً، تراهم كلهم على هيئة نجومٍ وأقمار. فجأة رأت نجماً قريباً جداً منها دون أن تنتبه لذلك، فتتعجب كيف لم تره وهو أقرب النجوم إليها؟ تلتفت إليه بلهفة، ثمعن النظر، فتجده على هيئة فيصل! كيف لم تلحظه وهو أقرب النجوم إليها وأشدّها ضياءً؟ تشعر بالتوتر والغثيان، لا تعرف أين تذهب؟ إلى أين ترحل؟ تضطرب، يخفت ضوء النجوم من حولها فيستحيل المكان إلى ظلام، بينما تزداد تشتتاً وتخبطاً!

نهضت من نومها مذعورة. تعوذت بالله من الشيطان الرجيم ومن شر ما رأت ثم انقلبت إلى جنبها الأيمن. قامت بتشغيل هاتفها الأيفون لعله يلهيها قليلاً، إضاءة الهاتف أضفت على الحجرة ظلالاً خافتةً، أرادت أن تدخل حسابه في الإنستغرام لتتابع أحدث أخباره وترى آخر صوره لكنها عدلت في اللحظة الأخيرة. أغلقت الجهاز فعاد الظلام إلى الغرفة لكن جزءاً من الستارة المنسدلة ترك ظلالاً ناعمة على الغرفة، ما يشي بليلة قمراء في الخارج. لم يمر من الوقت الكثير حتى استغرقت في النوم.

بيروت

"حتى عندما لا نبصر نوراً في نهاية النفق يجب أن نؤمن بأن النور لا بدّ أن يظهر".

أمين معلوف

(روائي لبناني)

جذبها الضوء الخافت المنبعث من الباب الموارب، اختلست النظر فوجدتها نائمة. بخطواتٍ رشيقة دخلت الغرفة حريصة على عدم إصدار أي صوت. لفت نظرها ورقة تحتضنها بيدها اليمنى كتبت عليها عبارات منمقة بخطٍ عربي لافت، سحبتها بلطف، لم تستطع أن تمنع نفسها عن الفضول لقراءة ما تحتويه الورقة. بدت لها كرسالةٍ من رجلٍ إلى امرأة لكنها لم تفهم منها الكثير، رجل ارتحل إلى مدينة سلوفاكية تزوج هناك ويتحدث عن الرحيل والنور. كانت لغة متمكنة والخط بديع، لكنها تساءلت ما شأن كاتبها بابنتها مريم. دثرتها بالحاف ووضعت الرسالة على الطاولة الجانبية لسريرتها، طبعت قبلة على خدها وأطفأت أنوار الغرفة، لم تشغل بالها في الرسالة فغداً ستسألها عن مصدرها، ثم خرجت من الغرفة بهدوءٍ كما دخلتها.

هي لم تجرب الأمومة إلا معها، الأمومة التي انتظرتها عشر سنوات، منذ اليوم الأول على زواجها. كل شهر كانت تنتظر، مرت الشهور ورحمها يأبى أن يستجيب للفتتها بإنجاب طفل، عشر سنوات وهي تنتظر، مئة وعشرون شهراً وهي تنتظر. كل شهر ينكسر فيها شيئاً ما، حالما تلحظ نظرات الترقب على وجه زوجها. كاذبٌ من يدعي اللامبالاة أمام الانتظار، بل وممثلٌ بارع. إن انتظار شيء نتوق إليه بشدة ويأبى أن يأتي يهزّ كياننا بشدة، حتى أشدها قوة وبأساً.

يؤلّمنّا الانتظار ولعل ما يزيده ألماً أن تترك من تُحبه ينتظر معك..

أن تعجز منحه ما ينتظره منك..

مؤلّمٌ جداً .. مؤلّمٌ أن تعجز أن تمنح من تُحب ما يُحبه..

ذات مساءٍ منير وبعد أن أدت صلاة العشاء دخل عليها زوجها حاملاً طفلة بين يديه. دون أن ينبس بكلمةٍ وضعها في حضنها بينما كانت تجلس على سجادة الصلاة وفي يدها اليمنى تحمل سبحتها الأثيرة بحبات الخرز البيضاء. كان شيئاً غريباً لا تقوى على تفسيره هو ما جذبها نحو تلك الطفلة الممددة بين ذراعيها المتلحفة بلحافٍ أبيض رُسمت عليه نجوم ذات أحجام مختلفة باللون الوردي. تأملت عينيها الملونتين اللتين حتماً سربتته إليها جينات والدتها الشامية. لم يكن لعينيها لوناً محدداً، تارة تبدوان باللون الأخضر وتارة بالعسلي وتارة باللون الرمادي، كان لونهما فريداً من بين هذه الألوان كالبحر يتغيّر بتغيّر الضوء. اليوم وبعد كل هذه السنين تتذكر جيّداً هيئة الصغيرة التي ما غادرتها أبداً وكأنه البارحة.

نهض زوجها ليستعد للخروج بعد أن اطمأن على الصغيرة، ثم قال لها: "أمها في المستشفى تعاني من مضاعفات الحمل الثاني، على الأرجح ستبقى لعدة أيام. إنها أمانة بين يديك يا موزة، لم أجد غيرك أقدر على العناية بها". لم ينتظر موافقتها، خرج دون إيماءة أو وداع. كان معتاداً منها على الانصياع والقبول، لكنها هذه المرة كانت فرحة. داعبت الطفلة بعد أن كشفت عنها اللحاف، ابتسمت فشعرت بالحياة تدب في أوصالها. تلك الليلة نامت قريرة العين مع الطفلة ورأتها في الحلم تناديها أمي.

منذ ذلك المساء المكتمل البدر الذي دعت فيه الله تعالى بقلبٍ صائم وجسدٍ واهن أن يرزقها بطفلٍ يملأ عليها حياتها، أصبحت تلك الطفلة كل حياتها. بالنسبة إليها تلك الطفلة آنذاك التي كانت بحاجةٍ إلى رعايتها هي تماماً كفتاة اليوم التي اقتربت من الثلاثين عاماً، مريم الطفلة لا تختلف كثيراً عن مريم الآن، كلاهما بحاجةٍ إليها. أدركت أن إحساس الأمومة ليس حكراً على الأم التي تُنجب فحسب، بل أيضاً الأم التي ترعى وتهتم. منذ ذلك

اليوم أصبحت مريم بالنسبة إليها ابنة لم تنجبها، لم تكن لتفارقها إلا في الإجازات التي كانت تسافر فيها مع والدتها وإخوتها.

تلك الأيام كانت تمر عليها بتناقلٍ لئيمٍ أليم، تُتعب وحدثها، تُشعرها بفراغٍ قاتلٍ لا تملؤه سوى القراءة. لولا القراءة لغدا الزمن أثقل من صخرةٍ ثقيلةٍ موجعة على صدرها لا تتزحزح من مكانها. علّمها الانتظار السفر بين عواصم الكتب والتحليق في عباب الكتب. لقد كانت ترهب ركوب الطائرات لذا استعاضت عنها بالسفر المعنوي. لم تسافر في حياتها سوى مرتين، المرة الأولى مع أهلها إلى الهند في طفولتها البعيدة، والمرة الثانية مع زوجها إلى بيروت.

لعل بيروت هي المدينة الوحيدة التي عرفتها خارج نطاق الورق والكلمات، لذا تحب كل ما يأتي منها. تحب شعراءها وفنانيها، أكالاتها وحلوياتها، شوارعها ومقاهيها. اسم بيروت وحده كفيلاً بنبش ذاكرتها لاستعادة أجمل تفاصيلها. غناء فيروز يسرح بها بعيداً جداً حيث الصوت هو الذاكرة. أخبار بيروت السياسية وحروبها الأهلية قادرة على استجداء دموعها حتى في أشد لحظاتها سعادة. إن للمدن حينئذٍ يختلف من ذاكرةٍ إلى أخرى، ومن زمنٍ إلى آخر.

كم أسعدتها رؤية فيصل اليوم! كان جلياً تجاوزه مرحلة اليأس والحزن بعد رفض مريم الارتباط به. كم تمنّت هذا الارتباط وما زالت تمنّي نفسها بحدوثه. تُدرك جيّداً مدى الألم الذي يخلفه خذلان مَنْ تُحبه! كما جاء إليها زوجها ذات يوم محملاً بخبر زواجه من أخرى بكل برود، ويضيف بأنه ينتظر منها طفلاً. قال ذلك كأبي خبرٍ عادي دون تبريرٍ أو اعتذار، بلى كانت تتوقع زواجه لكن ليس بهذه الطريقة المباغطة والأسلوب البارد. لو أنه أخبرها بنيته الزواج ما كانت سئمانع رغم ألم الموافقة، لو أنه ألحق خبر زواجه باعتذارٍ أو تبريرٍ سخيّف لكانت ستتقبل رغم يقينها بكذبتة. وجع الأحباء وخذلانهم يكمن أحياناً في الأسلوب وليس في الفعل ذاته.

بإيماءٍ صامتهٍ تقبلت خبر زواجه. أقنعت نفسها بأن هذا كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً، فحالة الزواج من الثانية هي العادة أما عدم زواجه فهو غير المعتاد. ومن هي لينذر زوجها حياته من أجلها. عندما هرعت إلى كتبها وقصص الأزواج الأوفياء الذين نذروا حياتهم لزوجاتهم رغم عدم الإنجاب لم تجد سوى القليل جداً، الحقيقة أنها لم تجد أحداً.

في غرفتها أطفأت الأنوار لتخلد إلى النوم وتطفئ ذاكرتها لعلها ترتاح. انسلت تحت الغطاء الصوفي في ذلك المساء البارد بعد أن قرأت أذكار ما قبل النوم. راودتها الفكرة نفسها التي تلح عليها منذ فترة، ثم حلمت مثل كل ليلة أنها تحمل طفلاً لا يشبهها.

لندن

"لو كان كل شيء في هذا العالم إيجابياً لن يكون لدينا ما نفعله".

جورج برناردشو

(أديب بريطاني)

- قررتُ أن أتبنى طفلاً!

جاء وقع الخبر مفاجئاً على الجميع، فهي لم تتحدث مسبقاً لأحد بقرارها. خيم الهدوء على مائدة الإفطار بانتظار ردة فعل بوسلطان القادم للتو من رحلة عمل. نظر نحو زوجته الأولى، ثم أطرق رأسه مفكراً كأن الخبر باغته، بعد برهة من الزمن مرّ على أمي موزة كدهرٍ قال:

- إنه قرارٌ صعب يا موزة.

- مدركةٌ ذلك ومستعدةٌ له.

- لكن أتعرفين الطريقة؟ أقصد الإجراءات ومن أين؟

- عن طريق هيئة تنمية المجتمع التي أطلقت مؤخراً "برنامج احتضان"⁶ المعني برعاية الأطفال مجهولي النسب.

- يبدو أنك بحثت جيداً.

- بالطبع.

- حسناً، أخبريني إن كنت بحاجة إلى المساعدة.

- شكراً بوسلطان، سعيدة بموافقتك.

تأمل أبو سلطان زوجته الأولى الذي بدأ الزمن يرسم آثاره على وجهها النحيل بمهارة وغلو. لو لم تكن هي من طلبت هذا الطلب لما وافق عليه أبداً. يُدرك صعوبة هذا القرار وعواقبه، لكنه أراد إسعادها بأي شكل لعله يرد إليها بعضاً من جميلها. ارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة ما إن وجد الفرحة ترتسم على محياها. عندها أكمل طبق "البلايط" ⁷ بشهية افتقدها منذ مدة، ثم سأل ما إن أنهى إفطاره:

- متى سترجعون إلى المنزل؟

أجابت ماما أسماء:

- سنرجع معك اليوم، أما موزة ومريم وريم فسيرجعن غداً مساءً.

- حسناً.

نهض الجميع عن طاولة الطعام، ماما أسماء وبوسلطان، استعداداً للعودة إلى المنزل، أمي موزة لتُباشر بإجراءات التبني، مريم وريم إلى الرسم.

يبدو أن عالم الألوان أخذ الفتاتين إلى عوالم أخرى أكثر بهجة، وخاصة ريم التي اتخذت من الفرشاة صديقة لها، لعلها أكثر إخلاصاً ونقاءً من صداقات كثيرين من البشر.

تشعر ريم بالفرشاة يوماً بعد يوم أكثر قرباً إليها، تحكي معها، تبتُّ إليها همومها، تشكو إعاقته ونقصها. أما الفرشاة لم تُخيب ظنَّ صديقتها، لم تتوقف عن تشجيعها وبث الأمل فيها. أحياناً للجمادات أرواح أقرب إلينا من أرواح البشر.

راحت ريم تحادث فرشاتها كالعادة:

- هل تعرفين يا فرشاتي أن أمي موزة ستأتي بطفلٍ إلى المنزل ؟

- حقاً!

- أنا أنا سعيدةٌ .. لأن فرداً جديداً سينضم إلى العائلة.

- كسعادتي عندما انضممتُ إلى عالمك.

- لكن، كيف وصلت إلى هنا؟

- إنها قصة طويلة؟ هل أنت متأكدة من أنك تريدين أن أحكيها؟

- بلى بلى .. احكي.

- هل تذكرين صاحبة المحل؟

- المرأة ذات الشعر الأبيض الذي يشبه القطن.

- هي في الأساس رسامة محترفة، كانت تُعطي دروساً في فن الرسم بأحد معاهد الرسم العريقة في باريس، فتحت هذا المحل الصغير لتقضي بقية الوقت فيما تحب. لم يكن همها الرئيسي جني المال بقدر حبها للعمل في مجال الرسم، يأتيها بين الحين والآخر طلبة معاهد الفن والرسامين الناشئين لأخذ مشورتها والتعلم من خبرتها.

- محلها مليء بأدوات الرسم .. مريم تحب محلها كثيراً.

- ذلك صحيح، فهي تبتاعها من أماكن متعددة. لقد ابتاعتني من محل لبيع معدات الرسم والتلوين في منطقة "كوفنت جاردن" في لندن.

- رحلة مسلية، ماذا حدث بعدها؟

- ليست مسلية بقدر ما كانت مرهقة. بعد أن ابتاعنتني أرسلتني مع أدوات وفرش رسم أخرى في طرد بريدي إلى باريس. بقيت فترة من الزمن في عتمة الكارتون الورقي أنتظر أن يُفتح لأرى النور، ثم في مساءٍ ممطر فُتح الطرد وتنفسنا الصعداء. وُضعت بعدها فوق رف من الرفوف الأمامية في المحل إلا أنني في يوم من الأيام وقعت على الأرض فحملني أحد الزبائن ووضعني في مكان غير ظاهر بالخلف، لم أكن مكشوفة للعيان إلى أن وقعت عيناك عليّ.

- كنتِ مختلفة؟ ربما مثلي .. بلى مثلي.

- كم كنت سعيدة لأن أحدهم شعر بي، أحس بوجودي.

- هيا لنرسم معاً يا فرشاتي العزيزة. أريد أن أرسم.

سارعت لإكمال لوحتها التي سبّهر بها الجميع لاحقاً، وستُنجز أعمالاً فنية رائعة تُقدم درساً في إرادة وإصرار الإنسان على محاربة نقصه. قد تكون ريم مصابة بـ"متلازمة داون" إلا أنها تفوقت على الكثير ممن لم يعانون مثلها، لتثبت أن الإنسان كائنٌ يزداد صلابة بالإرادة، ويبدع بالممارسة وقادرٌ على تحدي عجزه في الصبر.

في الغرفة المجاورة كانت مريم ما تزال مندهشة من قرار أمي موزة المفاجئ. كان شعورها ككفتي الميزان يتأرجح بين الحزن والفرح يميل لحظة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال. كانت سعيدة لأنها مدركة أن ذلك القرار حتماً سيفرحها، لكنها في الوقت ذاته قلقة حزينة خشية أن يستولي هذا الفرد الجديد على حب أمي موزة لها. راودها شعور بالغضب لأنها لم تُخبرها مسبقاً بنيتها تلك، وهي التي حسبت نفسها بمثابة ابنة لها. أصواتٌ كثيرة تداخلت في أعماقها: "كيف تقرر دون علمي وهي التي تعتبرني ابنتها؟.. كان عليها أن تخبرني.. على الأقل قبل الجميع.. لا أستطيع مسامحتها"، لكن فجأة صوت العقل صرخ بداخلها: "لا

تكوني أنانية! إنها أمي موزة التي أفنت شبابها في رعايتك. هل نسيت؟". كان عقلها قاسياً إلا أن قسوته لا تحول دون كونه محقاً. انتفضت ألماً وبكت، تركت دموعها تسيل خجلاً من نفسها، لعلها تُظهر ذاك الجزء البشري الدنيء فيها. لا تريد أن يأخذ شخصاً آخر مكانها في قلب أمي موزة، تريدها لها، لها فقط. كان ذلك الشعور أقوى منها وتلك الهواجس أصعب من أن تسيطر عليها.

نداءٌ خفيٌّ دعاها لأن تفتح الرسالة الرابعة للعم حسن لا تعرف له تفسيراً، لكنها أرادت أن تستعير قليلاً من ذاكرة الرجل الحكيم لعله يلهمها شيئاً من الحكمة.

الرسالة الرابعة

تيقنث أننا بشر شئنا أم أبينا..

مزيجٌ من الخير والشر.. الحب والكراهية.. التضحية والأناية..

أجزم بعدم وجود المطلق..

الخير المطلق أو الشر المطلق..

بداخل أكثر الناس دناءة شيء من الخير..

وبداخل أكثر الناس طيبة شيء من الشر..

بعد وفاة أنا استرجعت أخطائي..

وما أكثرها!

حاسبت نفسي..

وما أشدها!

بعض الأخطاء لا رجعة فيها كطريقٍ بمسار واحد..

كذاكرةٍ بلا عودة..

ماذا نفعل حيالها؟

هل نتحاشاها حتى نصل إلى النهاية.. أم نطلب السماح والمغفرة؟

مؤكد أنك لو كنتِ مكاني ستختارين الثانية..

حسناً لأكمل ماذا حدث بعد رحيل زوجتي..

كان آدم في سنته الجامعية الأولى، وقفتُ إلى جانبه، ساندته ليُكمل دراسته الجامعية. كان يوم تخرجه من الجامعة من أسعد أيام حياتي، تمنيتُ لو كانت والدته على قيد الحياة لتراه، كانت تنتظر هذا اليوم!

بعد التخرج اكتشفتُ أنه قدم على وظيفة في مدينة لندن دون علمي وتمّ قبوله. حينها كانت سلوفاكيا منضمة إلى دول الاتحاد الأوروبي، ما سهّل على مواطنيها التنقل والعمل في مدن أوروبا المختلفة، فضل الكثير من شبابها العمل في دول أوروبا الغربية نظراً للرواتب العالية التي يتلقونها. أخبرني بقراره فلم أستطع أن أمنعه، رغم أنني أردته وبشدة أن يبقى معي. خشيتُ أن أطلب منه البقاء ويرفض فيبقى جرحي نازفاً لا يلتئم، لذا فضلت أن أوهم نفسي بأنني أنا من لم أطلب منه البقاء وإلا ما رحل. يكون الأبناء أنانيين في أحيان كثيرة، ينسون في أوج ألقهم أن آباءهم وأمهاتهم على وشك الانطفاء، فينغمسون في مشوار الحياة والبحث عن مستقبل أفضل. لا أستطيع أن ألومه، ألم أكن أنا مثله يوماً ما؟ كيف تلوم غيرك على فعلٍ اقترفته مسبقاً؟ أيستطيع المدخن أن يقنع غيره بعدم التدخين؟ كنت كذلك.. دفاعي فاشل.. شهودي ضدي.. قضيتي خاسرة.. وصحتي على وشك الأفول.

شخص مرضي بأنه أحد أمراض الأعصاب النادرة، الشديدة الندرة، يصيب شخصاً كل مليون أو أكثر لا أذكر الرقم الذي ذكره لي الطبيب. لم أكرث حينها بمعرفة العدد، المهم كنت أنا هو ذلك الشخص الذي اختارني المرض من بينهم. ما أذكره أنني قلت للطبيب:

- حسناً.. دعك من مجاملاتك كطبيبٍ يحاول التخفيف عن مريضه؟ ما هي النهاية؟

- لا أعرف؟ لكن على الأرجح سيقضي المرض على أعصاب جسدك بالتدريج، فلن تستطيع عندها الاعتماد على نفسك.. لكن..

- لكن ماذا؟ تقصد أنني سأصاب بالشلل؟

- نعم، شيء من هذا القبيل.

- وماذا بعد؟

- سرعة المرض وشراسته لن تُعرف إلا لاحقاً، لكن أصدقك القول المؤشرات لا تطمئن.. أنصحك أن تجد من يركعك أو تبحث عن مركزٍ متخصص للرعاية مستقبلاً.

أردتُ أن أخبره أن ابني الوحيد سيسافر غداً إلى لندن للعمل إلا أنني عدلت، وفضلت الصمت.. لا شيء سوى الصمت.

مريم أيضاً اتخذت من الصمت رداً لحزنها. تدافعت الأسئلة نحوها بقسوة وشراسة: كيف يكون الأبناء أنانيين هكذا؟ جاحدين؟ لكن ألم تكن هي قبل قليل تشبه هذا الابن؟ ألم تحزن للتو بقرار أمي موزة بتبني طفل؟ أهي خائفة أن يأخذ هذا الطفل مكانها في قلب أمي موزة؟ أم إنها غاضبة لأنها لم تخبرها مسبقاً بقرارها، وهي التي تعودت أن تشاركها كل تفاصيلها؟ وإن يكن، أليست أمي موزة هي من رعتها كل هذه السنين؟ ألا تستحق أن تفعل شيئاً يُسعددها، وهي متأكدة من أن قرار تبنيها لطفل ما كفيلاً بإسعادها؟

تركها هذه الأسئلة تعيد مواجهة نفسها من جديد، لا تريد أن تشبه ذلك الابن. لم يستغرقها الوقت مطولاً لتهرع إلى أمي موزة، احتضنتها، قبلتها، بللتها بدموعها التي تركت لها العنان. جاء بكأؤها كغيثٍ بعد سنوات من الجفاف ما أطفاً جميع أحزانها. لم تكن مريم بحاجة إلى البكاء يوماً مثل ذلك اليوم. نحن أحياناً بحاجة إلى البكاء لأي سبب أو حتى بلا سبب، لنشعر بإنسانيتنا وضعفنا، نتطهر، نخفف عنا، نتخفف من مشقات الحياة وأحزانها.

- أنتِ أمي وأنا ابنتك. أليس كذلك؟

- بلى أنتِ ابنتي، ما بكِ يا مريم؟ ألا تريدين أن أتبنى الطفل؟

- بل أريد ذلك، وسأتي معك، أريد أن أرى أخي أو أختي.

- أريدها طفلة.

- ماذا ستسميها.

- عندما نراها سنسميها، وستساعديني على اختيار الاسم، اتفقنا؟

- اتفقنا!

جدة

"لا يهم السبب الذي نبكي من أجله، فقد كانت قلوبنا تمتلئ بالأحزان لدرجة أن أي شيء يكفي ليكون سبباً".

عبدالرحمن منيف

(روائي سعودي)

باعت أساورها لتدفع للوسيط الذي سيجد له عملاً في إحدى دول الخليج. لا ينسى ذلك اليوم أبداً عندما عدت والدته الروبيات روبية روبية لأكثر من مرة، فكل منها تعني لهما الكثير. بعدها بأسبوع كان في مدينة جدة ليعمل لدى عائلة هندية مقتدرة تعيش هناك. في إحدى زيارته أُعجب به أبو سلطان، التاجر الإماراتي الذي كان شريكاً لرب عمله، فما كان منه إلا أن طلب الإذن من شريكه للعمل لديه، فأتى به إلى دبي. كانت مدينة جدة أول منافذه على العالم. رغم عمله الشاق وراتبه البسيط هناك، وقصر المدة التي بقي فيها إلا أنه تعلم خلالها التحدث باللغة العربية وزار مكة المكرمة عدة مرات.

قرر اليوم أن يشتري لوالدته تلك الأساور ذات الأحجار الخضراء التي رآها قبل أيام. خائف من الزمن أن يكون مجحفاً بحقه فلا يستطيع أن يفني بوعدته، أن ترحل قبل أن يرى تلك الأساور في معصمها الأسمر النحيل.

دلف المحل الذي كان يخلو من الزبائن في بداية اليوم. خطفت أنظاره الأساور التي ما زالت في مكانها كما تركها آخر مرة. ساوم البائع على السعر، بعد مناقشات سريعة اتفقا على السعر واشتراها. وضعها البائع في علبة مخملية حمراء، ثم لفها بورق الهدايا الذهبي

الخاص بالمحل وزينها بشريطٍ يناسبه من الساتان الأحمر القاني. قبل أن يخرج من المحل نهبه البائع أن بإمكانه الحصول على كوبونات مهرجان التسوق التي تؤهله لدخول السحب اليومي. لم يستمع إليه، فقد كان مبهوراً بالهدية الثمينة التي يحملها بكلتا يديه كطفلٍ حصل على غايته. خرج مسرعاً كي لا يتأخر على أمي موزة ومريم.

كانت المسؤولة في دار الإيواء تتحدث مع أمي موزة ومريم بينما تطلعهما على المكان. أخبرتهما أنه على الرغم من أن ظاهرة الأطفال المجهولي النسب ليست متفشية في المجتمع الإماراتي، إلا أنه من الضروري توفير السبل المناسبة للعناية بهذه الفئة المستضعفة في المجتمع حتى تنعم بكنف أسرة كريمة توفر لهم ما يفتقدونه، ثم تطرقت إلى عدد الأطفال الذين يحتضنهم المركز وتفاوت أعمارهم. ذكرت لها أيضاً عن الصعوبات التي يواجهها الطفل وكذلك التي تواجهها الأسرة الحاضنة، بينما كانت السيدة تتحدث رأت أمي موزة طفلة تشبه تماماً تلك التي تزورها في أحلامها مؤخراً. طفلة لا تشبهها إلا أن هناك ما جذبها إليها، شعرت بتشابه مسارهها، تقاطع أقدارهما.

أشارت نحوها، ثم قالت بصوت مسموع:

- هذه ابنتي.

نظرت السيدتان نحو الطفلة التي كانت تحبو مع أطفال يماثلونها عمراً في غرفة الألعاب. اقتربت الطفلة من المرأة التي قررت أن تتبناها، لكأنها شعرت بالشعور نفسه الذي راود المرأة التي ستصبح أمها بالتبني قريباً، ثم اعتدلت في جلستها وتوسلت إليها أن تحملها في لفطة مفاجئة لم يتوقعها أحد. ابتسمت الطفلة ما إن حملتها المرأة، فضاقت عينها الصغيرتان اللتان توشيان بأصلها الشرق آسيوي. أمسكت الصغيرة بالسلسلة الذهبية التي كانت تزين صدر المرأة وأخذت تعبت بها بيديها الصغيرتين. لم تكن المرأة في حاجة إلى تفسيرٍ لتعرف من أن هذه الطفلة ستدخل حياتها عما قريب، وستنبت في حياتها زهرة جديدة تسميها شيخة على اسم أمها الراحلة.

أمستردام

"ليست لغة الرسامين بل لغة الطبيعة هي ما ينبغي أن يستمع المرء إليه. الشعور بالأشياء نفسها، بالحقيقة، أكثر أهمية من الشعور بالصور"

فان جوخ

(رسام هولندي)

كان يهرع نحوها ما إن تزورهم مع أمي موزة ليضع الأزهار التي قطفها من حديقة منزلهم بين كفيها الصغيرتين. يختلف نوعها بحسب الفصول، من الورد الجوري إلى الفل والياسمين. في الصباحات الشتائية كان يأتي بالأزهار معه إلى المدرسة، فيضع بعضها في حقيبة مريم والبعض الآخر على طاولة معلمة اللغة العربية التي كان يحبها كثيراً. ظنَّ كل مَنْ في المدرسة أنه أخوها أو قريبها، حتى هو اعتقد في مرحلة مبكرة من عمره أنها ابنة خالته موزة. لا يذكر متى عرف أن الفتاة الجميلة صاحبة العينين الملونتين اللتين لا يعرف لهما لوناً معيناً، والغمازة اليتيمة التي تشرق على خدها الأيمن كلما ابتسمت، لا تربطه بها أية قرابة لا من قريب ولا من بعيد. اكتشف أنها ابنة ماما أسماء، زوجة أبو سلطان الثانية من زوجها الأول الذي توفي عندما كانت حاملاً بها.

لم تكن مريم قريبة من أمها كقربها من أمي موزة. استأثر الذكور بقلب أمهم مما أبعد الابنة عن أمها بمرور الزمن. طالما أسرت لفيصل عن علاقتها الغريبة بأمها، لم تكن تشعر أنها أمها الحقيقية بل إنها كانت تبتُّ شكوكها إليه بأن زوجة أبيها هي والدتها الحقيقية. الواقع أنها تمنّت في قرارة نفسها لو أنها كانت بالفعل والدتها. في يوم الأم من كل سنة تهرع في الصباح الباكر إلى حجرة أمي موزة وتهديها ورود التوليب التي تعشقها قبل أمها. يُقال إن

هذه الزهور معناها التصريح بالحب كما سمعت ذلك من فيصل الذي كان أول من عرّفها بهذه الزهور الجميلة التي تشبه الجرس المقلوب. أخبرها أن هولندا تشتهر بزراعتها وتعتبر رمزاً لها، ومصدر دخل كبيراً حيث تُصدر سنوياً بليون زهرة إلى كل بلاد العالم.

من ضمنها كانت باقة التوليب التي طلبتها من محل الزهور ليوم زفافها. وصلت الباقة في الصباح الباكر من أمستردام لتكون شاهدة على زواجها الذي لم يستمر. في ذلك اليوم ظلت تنسب بالزهور التي اختارتها بعناية طوال ساعات الزفاف، ثم ألقته في نهاية اليوم على قريباتها العازبات فوقعت بين يدي أختها ريم، التي احتفظت بها في خزانة ملابسها لفترة من الزمن.

في اليوم الذي بدأت فيه مريم العودة إلى ممارسة الرسم من جديد قررت أن ترسم أزهار التوليب، وكأنها أرادت أن تبث شيئاً من ذاكرتها على لوحة الرسم الصماء. هل كانت تُمني نفسها بالتخلص من ذاكرتها إن هي سلّمتها إلى اللوحة؟ وكأنها تخلع عنها ثوباً وتُعلقه على المشجب في نهاية اليوم.

هل يُدخل الفنان صوراً من تفاصيله وذاكرته على قماش الرسم ما إن يُمسك بالفرشاة والألوان؟ هل اللوحات التي نراها مُعلّقة في المعارض والمتاحف تحمل في انحناءاتها وبين ثناياها شيئاً من الواقع؟ أم إنها محض خيال فنان؟

هل الفن ترجمة للواقع أم إنه هروب من الواقع؟

هل نرسم لنهرب أم لنرتاح؟

هل نرتاح عندما نرسم أم نريح ذاكرتنا؟

هل ذاكرتنا هي اللوحة أم اللوحة مرآتنا؟

أسئلةً توالى على عقل مريم بينما كانت منغمكة في الرسم. وجدت نفسها لا شعورياً ترسم بقايا مزهرية مكسورة على طاولة خشبية، مُنسكب ماؤها ومُتناثرٌ بالقرب منها أزهار توليب وردية. شبه مريبٌ جمع بين اللوحة وذاكرتها، الإناء المعطوب يشبه زواجها والأزهار ذابلة مثلها. تذكرت حلمها الغريب قبل أيام، عندما رأت الأقدام تدهس باقة زواجها، فتحولت إلى بقايا ألوان ملطخة تعسة تشبه الأقدام التي تناوبت على سحقها.

أيقنت أن الإنسان ذاكرة، يكتب بذاكرته، يرسم بذاكرته، يتحدث بذاكرته. ذاكرتنا تندس في أغلب أشيائنا دون أن نعي، معنا في جميع حالاتنا، الفرح والحزن، الخوف والطمأنينة، الشك واليقين.

عادت بذاكرتها إلى مَنْ عرّفها بالتوليب لأول مرة، ذلك الطفل الأسمر المشاكس. كان نحيلاً له عينان صغيرتان ونظراتٍ ذكية تتلصص من خلف نظارة طبية، وأسنانه متباعدة كالمشط وأذناه تُلوّحان للهواء. على نقيضها كان متفوقاً في دراسته خاصة في المواد العلمية والرياضيات التي كانت تكرهها، لذا دأب على مُساعدتها في أداء فروضها. طالما أمسك بها متلبسة بجرم السرحان خلال الحصص الدراسية التي كانت تستغرقها في رسم أي شيء وعلى أي شيء تجده أمامها. كانت تلك الرسومات تأخذها إلى عالمٍ آخر وتُحلّق بها عالياً، لذا لم يقف التوبيخ أو العقاب حاجزاً بينها وبين الرسم بل جعلها تنغمس فيه أكثر وأكثر. الوحيد الذي كان يُشجعها هو ذلك الطفل الذي كان ينبهر بما ترسم مثلما كانت تنبهر بما يكتب.

شغلته تلك الطفلة المرححة التي كانت ترسم أجمل اللوحات التي تُعلّق في ممرات المدرسة وتُشارك في معظم معارض الرسم. كانا في المرحلة الدراسية ذاتها فأصبحا صديقين في المدرسة كما في خارجها، يلتقيان عند أمي موزة أو في منزله. لاحقاً تفرقا في المرحلة الإعدادية حيث انتقل إلى قسم البنين وهي إلى قسم البنات، لكن علاقتهما ظلت وزياراتهما العائلية لم تتوقف.

السؤال الذي بدأ يلح عليها الآن: "لماذا رفضته؟". لعل أصدق الإجابات هي أنها لا تدري!. يساورها شك بأنها رفضته لأنه كان متواجداً معها في أغلب تفاصيل أيامها، واضحاً في جلّ صور حياتها. أرادت البعيد عوضاً عن القريب، بحثت عن الأكثر غموضاً عوضاً عن الأوضح، أحبت الأصبغ عوضاً عن الأسهل.

لم تعرف أننا أحياناً نترك الأفضل لأنه في متناول أيدينا..

نتجاهل الجمال من حولنا لأننا تعودنا عليه..

لا نشعر بقيمة ما نملك إلا عندما نفقده..

برايتون

"أبكيثُ إنساناً رغم أنه أحبني.. وأحببتُ إنساناً رغم أنه أبكاني"

شكسبير

(من أعظم أدباء بريطانيا)

ما إنْ أنهت رسم لوحة التوليب حتى بدأت تتأمل تفاصيلها مرة أخرى. رأيت سيقان الأزهار التي تقترب من الانطفاء ما زالت متشبثة بالإناء المنكسر باحثة عن قطراتٍ من الماء، ونصفها العلوي متهدلٌ على طرف الطاولة يترنح في الهواء، وكأنه على وشك السقوط. اكتشفت كم كانت تشبه أزهار التوليب تلك وزواجها كذاك الإناء! لا هي تريد أن تترك الإناء ولا هي تريد أن تتحرر.

هاهنا أن تجد شيئاً صريحاً صارخاً بينها وبين الأزهار الباهتة تلك، فهي ما زالت متشبثة بذكرى زواجٍ معطوب رغم يقينها أنها لا تستطيع ترميمه ولا استعادته. تماماً كذلك الإناء المنكسر الذي يستحيل إعادة شظاياها، حتى هذه اللوحة التي أمامها الآن يصعب عليها إعادة رسمها دون إتلاف ورتق أجزاء المزهريّة في الرسمة كما كانت دون تشويه. إذن ماذا عليها أن تفعل؟ أيقنت أن عليها بكل بساطة أن تتحرر من سيطرة الإناء، ورؤية ما حولها بوضوح، أن لا تدع الأمس يعيقها برؤية اليوم، ولا اليوم برؤية الغد.

نهضت من أمام اللوحة. أخرجت صندوقها الثمين لعله يللمم بعضاً من أجزائها، بعضاً من ذاكرتها.

الرسالة الخامسة

استقر آدم في مدينة برايتون الساحلية التي تبعد عن لندن زهاء الساعة. سافرت إليه مرات عدة في بدايات انتقاله وقبل أن يشتد علي المرض وتسوء حالتي. كلما كنا نتمشى سوياً على شاطئ برايتون الصخري، يحدّثني عن شوقه لأمه بينما ينظر إلى الأسفل حيث الأحجار الرخامية ذات الألوان المختلفة. كان بين حينٍ وحين يركل برجليه بعض الأحجار ويتأوه حزناً عليها، فتمتزج تأوهاتة بأصوات نوارس البحر وينقبض قلبي. أتأمله بينما يطيل النظر نحو البحر الهائج، كم هو بهي هذا الشاب! لقد ورث حب البحر من والدته وكذلك لون عينيه الزرقاوين.

في زيارتي الأخيرة قضيت معه إجازة رائعة أنستني كل الأشياء التي تتنافس على إثارة همومي وأحزاني. أنستني المرض وقسوة الزمن وألم الذاكرة. مرّ الوقت سريعاً، سريعاً جداً، قبل أن أحظه. هي كذلك لحظات السعادة تكون خاطفة وتخطف معها قلوبنا.

عشت بعدها أتسول من ابني مكالمة أو صورة أو رسالة إلكترونية. الانتظار قايس جداً، لا يرحم المنتظر، بينما المنتظر تسول له نفسه أن يتناسى من يتوسله ولا يئن عليه ولو بلحظاتٍ من وقته. مجرد لحظاتٍ بإمكانها أن تحدث فرقاً شاسعاً وتترك في النفس الأثر الكثير.

لقد أتعبني الانتظار والبقاء وحدي. ما عدت أطيق نفسي ولا أطيق البقاء مع وجوه لا تعرفني ولا تأبه بوجودي، ما عدت أحتمل انتظار تلك اللحظة التي سيودع بي في مشفى كأولئك العجزة أصحاب النظرات التائهة، الباحثين بين الوجوه عن وجه لا يزال في ذاكرتهم المثقوبة. خفت أن أقضي أيامي وحيداً في انتظار الخلاص فقررت العودة. عدت إلى موطني تاركاً كل شيء ورائي، رحلة عكسية لتلك التي كانت قبل أكثر من عشرين سنة. بعث كل ما أملك وعدت إلى دمشق. وكلت ابن أختي العناية بي والاهتمام بأموري، ذلك الفتى الذي كان يرافقني كل صباح قبل ذهابه إلى الجامعة، ليعوضني عن الابن الغائب وأعوضه عن الأب المفقود.

ثم رأيتك..

صدفة..

ألم أخبرك أن أهم قرارات حياتي كانت محض صدف..

وهذه كانت أجملها..

كنت بصدد شراء منزل في أحد الأحياء الحديثة بالعاصمة، ثم قبيل الانتهاء من إجراءات عقد الشراء غير صاحب العقار رأيه. خرجت غاضباً من عنده مكيلاً له السباب والشتائم فقد اكتشفت أنه بصدد بيعه لشخص آخر بثمن أعلى. طلبت من ابن اختي أن يأخذني إلى حي أبو رمانة الذي أحبه. ما إن وصلنا حتى دخلنا عبر ممراتها وأزقتها العتيقة، جذبني مقهى يعج بالزبائن، كنت بحاجة إلى التقاط أنفاسي من التعب، وإلى فنجان من القهوة يُعدل مزاجي. دخلنا، رأني صاحب المقهى، تحادثنا، عرف بما حدث، لم ينبس بأي كلمة. بعد أن أنهيت قهوتي أخذني من يدي إلى منزل لا يبعد كثيراً عن المقهى، فسيحاً بحديقة جميلة وشرفة واسعة تطل على جبل قاسيون. اشتريته رغم أنني لم أكن أبحث عن منزل في ذلك الحي العريق الذي يندر أن تجد فيه منازل مناسبة للبيع. كان بيتاً دمشقياً بامتياز كما تمنيت يوماً إلا أنه هادئاً حد الألم.

الأمنيات المتأخرة تفقد رونقها..

يتبخر أثرها..

أثرها يرى.. لكنه يزول..

يرحل..

يذوي..

يموت سريعاً..

لا يشبه أبدأ أثر الفراشة..

"أثر الفراشة لا يرى.. أثر الفراشة لا يزول" ⁸

ألم أخبرك أنني عندما أكتب أظير كالفراشة نحو الضوء فتحترق..

وأحرق أصابعي..

إلا أنني لا أستسلم..

أعود الكتابة فأحرق أصابعي من جديد..

الكتابة تشبهني..

وكذلك الفراشة..!

نسيث أن أخبرك أنني كنت مشروع كاتب..

وحكاية فراشة..!

اشتريت المنزل وعدت أكتب، لكن لم أعد أعرف لمن أكتب ولماذا؟ إلى أن وجدتك.

أحسّت بشبه خارق بين الكتابة والرسم، كلاهما يلون البياض بشيء من الحياة، الأول يكتب رسومات والثاني يرسم كلمات.

كلاهما يحكي..

تختلط الألوان فتشكل لوحة..

تختلط الكلمات فتشكل رواية..

وفي كل لوحة حكاية..

لها بداية ونهاية..

عقدة..

ومغزى..

ريو دي جانيرو

"لن تدرك قيمتي حتى تفقدني.. ثم تعثر عليّ من جديد".

باولو كويلو

(روائي برازيلي)

قرأت ذات مرة لكاتب برازيلي رواية أذهلتها، عرفت أنه من ريو دي جانيرو ومنذ ذلك الحين أغرمت بمدينةته وبكل ما يكتبه. أبحرت في كتاباته وسافرت إلى مدينته عبر حروفه. اليوم أدركت مغزى عبارة اختتم بها روايته الأشهر "الخيماي" ⁹ يقول فيها: "إذا رغبت في شيء فإن العالم كله يطاوعك لتحقيق رغبتك".

منذ أن سيطرت عليها رغبة تبني طفل وجدت أن الظروف كلها تُساعد على تحقيق رغبتها. كانت تخشى من رفض زوجها إلا أنها وجدت منه تجاوباً وتشجيعاً. أما مريم فاكتشفت أن قلقها من رفضها لم يكن مبرراً فها هي سعيدة بقرارها، و"برنامج احتضان" المعني برعاية الأطفال مجهولي النسب فقد يسّر لها الإجراءات بعد أن قدمت لهم الطلب.

لقد قضت الأيام السابقة في تقديم طلب التبني وإنهاء الإجراءات بمعاونة سائقها بشير. كم هي ممتنة لهذا الشاب الخلق الذي يرافقها في أغلب مشاويرها! أخبرها أنه لن يسافر قبل أن تنهي إجراءات التبني لذا أنهت الإجراءات خلال أيام معدودة، وها هو بشير يسافر اليوم إلى والدته. ستفتقده، لكنها حتماً ستكون أسعد حينما تصلها أخبار مطمئنة عن والدته. تأمل أنه إلى حين عودته تكون طفلتها بين أحضانها. نظرت نحو ساعتها وخنمت لا بدّ وأنه وصل المطار الآن.

كان ينظر إلى المسافرين من حوله، يتأمل هيئاتهم، يبحث عن أي شيء يلهيه بينما ينتظر. لفت انتباهه مشاجرة بين صبية يقفون في الصف الآخر بجانبه، يتجادلون عن أنديتهم المفضلة، كل منهم يذكر مميزات فريقه المفضل ويكيل السباب للفريق الآخر. تعجب وتمتم في سره: "حتى الأطفال تعلموا التعصب!".

العالم كله انقسم إلى فرق، كل فريق له أتباعه، كل منهم يظن أنه على صواب، لا يظن فقط بل متيقن ومتأكد. حتى علاقاتنا الإنسانية لا تخلو من التعصب والانقسام. أليس هو نفسه ضحية لهذا التعصب عندما رفضه أهلها؟ ما جمعهما كان حياً لم يعرف بعد العوائق والحدود التي تفنن في صنعها البشر!

رآها أول مرة صدفة في مصعد أخذهما إلى أعلى طابق في المبنى، ولم يعرف حينها أنه لن يستطيع أن يصل إليها أبداً، فالحياة لا توجد بها مصاعد ترفعك إلى مستوى اجتماعي أعلى أو تنزل بك إلى الأسفل، أن تصلك إلى طائفة لا تشبه طائفتك أو أن تأخذك إلى حيث لن يسأل أحدهم عن أصلك ونسبك. عبثاً حاول أن يُقنع نفسه أن الحب سيقف أمام كل العوائق كما تعود أن يشاهد في أفلام بوليوود التي يعشقها، ليكتشف لاحقاً أن أفلام بلاده لا تمت للواقع بصلة، ووجب أن يُنوه بذلك في بداية أي فيلم حتى لا يخلط المشاهد الساذج مثله بين الواقع وما يراه في الشاشة.

- جوازك والتذكرة إذا سمحت.

- آه.. آسف.. لحظة.

- يمكنك وضع أمتعتك هنا سيد بشير.

- حسناً.

وضع أمتعته في انتظار أن تنهي الموظفة إجراءات السفر المعتادة. سيكون اليوم مساءً في حضن أمه، وبعد غد سيأخذها إلى المشفى لإجراء العملية. ساوره شعور غريب بالقلق لا

يعرف مصدره. حاول إبعاد وساوسه بفتح الحقيبة الصغيرة التي كان يحملها على ظهره، تأكد من وجود العلبة المخملية الحمراء، فتحها بحرص فلمعت الأساور بداخل الحقيبة السوداء. اطمأن قلبه، ثم أغلق الحقيبة بتأن وإحكام. في تلك اللحظة رنّ هاتفه المتحرك، فأخرجه من جيب بنطاله. ظهر على الشاشة رقمٌ أرضي غير مسجل في هاتفه، ازدادت خفقات قلبه، انهالت عليه الأفكار من كل جانب وحاصرته. لم يستسلم لتلك الأفكار، والدته بخير وقد تحدث معها مساء أمس. تجاهل المكالمة وأكمل إجراءات السفر. أخذ التذكرة والجواز من الموظفة وذهب حيث المغادرين. رنّ هاتفه مرة أخرى وظهر الرقم ذاته، أحسّ بصوت الهاتف يخترق طبلة أذنه، إنه لا يسكت، كأنه يرن بلا توقف. كان خائفاً، متوتراً، يخشى مما ينتظره، لا بد أن أحدهم سيطلعه على خبر سيئ عن أمه. أراد أن يُخرس رنين الهاتف بأية طريقة، لكنه في اللحظة الأخيرة استجمع شجاعته وردّ على المكالمة.

- السلام عليكم.

- وعليكم.. عليكم السلام.

- هل أنت السيد بشير محمد بشير؟

- آه.. لماذا؟ أقصد نعم أنا بشير.. من أنت؟ ماذا تريد؟

شعر بدوارٍ يجتاح رأسه، وكأنه راكبٌ في إحدى ألعاب مدينة الملاهي. رأى الوجوه من حوله تدور معه، بعضها تقترب وتحملق فيه، بعضها تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة ولغاتٍ مبهمّة. شعر بأنه في عالمٍ آخر، بحث بين الوجوه عن أمه فلم يرها.

الغردقة

"الذكريات دوامات متتالية الدوائر، ومتداخلة. فإن أستسلم لها وأحكيها بقلمي، فمن أين أبدأ؟"

يوسف زيدان

(أديب ومؤرخ من مصر)

- مريم .. مريم .. مريم؟

- أنا هنا.. معك!

- لا .. لستِ معي!

- لا.. لا أبدأ.. أنا هنا معك.. هيا بنا ريم لنكمل الرسم.

كانت مريم تكذب حتماً وريم متأكدة من ذلك، لكنها فضّلت مجاراة أختها، لا بدّ وأنها تفكر فيه. منذ أن زارهم ذاك الشاب الأسمر وحالها تغيّر. تتحدث عنه بمناسبة ودون مناسبة، تغيّر دفة الحديث إلى حيث تؤدي إلى الحديث عنه، تتقصى أخباره، تسأل عنه أمني موزة. هل يعودته أنساها الآخر؟ هو لم يُنساها بل أعادها إليها.

لم تعد تترثي لحالها بعد الآن وتتحسر على أيامها الضائعة مع الآخر، لم تعد تتصيّد أخباره وتساءل عن حياته، لم تعد تبحث عن أحدث صورته وتتطلع إلى آخر مقالاته، لم يعد يعينها كل ذلك. كل ما كانت تحفل به الآن هو فيصل. كيف تسترجعه؟ لا تعرف! أكثر ما كانت تخشاه أن يعتقد أنه مجرد بديل للآخر بعد طلاقها، وبالذات مع تناقص فرصها للزواج مرة

ثانية. لا تعرف لماذا يفكر عقلها بهذه الطريقة؟ هي احتمالات وتبقى مجرد احتمالات لكنها واردة جداً، ولكن ما ذنبها إذ لم تكتشف حقيقة مشاعرها سوى الآن؟ خائفة أن يصدها الآن كما صدته في زمنٍ مضى، لكن..

الحب الحقيقي لا يعرف الثأر..

وليس المحب في حاجة إلى الاعتذار أو التبرير..

أحياناً تكفيك كلمة..

مجرد أحرف..

تنتقى بعناية بإمكانها إصلاح كل شيء..

كل شيء..

فالأبجدية بإمكانها فعل الكثير..

أكثر مما يتصور البشر..

تركت مريم أختها وانسلت نحو أوراقها لتقرأ الرسالة قبل الأخيرة. هذه المرة كانت أكثر شغفاً وشوقاً لمعرفة الكلمات التي تنتظرها، تلك التي كتبت من أجلها. هل ستفتقد هذه الرسائل ما إن تنتهي منها؟ تذكرت أنه أخبرها يوماً بفرادة تجربة الرسائل التي تكتب بخط اليد، بدت لها فكرة طريفة لو أنها تطلب منه مراسلتها عبر البريد. استحسنت الفكرة. لم لا؟ لكنها لم تكن يوماً جيّدة في الكتابة! قد ترسم له عوضاً عن الكتابة. أليست الكتابة فن الرسم بالكلمات؟ شدتها الفكرة!

الرسالة السادسة

هل تعرفين ماذا تذكرت اليوم؟

تذكرت رحلتي الأخيرة مع أن إلى الغردقة. لقد أحببت شمس هذه المدينة وشواطئها بقدر ما أحببتي، فما كان مني إلا أن حققْتُ أمنيته الأخيرة لترى الشمس حالما تغيب وقت الأصيل على شاطئ البحر الأحمر.

كنا على الشاطئ الذهبي المطل على البحر الأحمر ننظر إلى الزرقة من حولنا. رذاذ المطر الخجول ترك المكان هادئاً على غير العادة، وكأنه متواطئٌ معنا حتى لا يُشرك الغرباء أسرارنا. بحث لها بجملته لا أنساها أبداً: "لست كما تعتقدين.. لست ذلك الرجل الصالح المخلص النزيه من الأخطاء". كان ردّها: "ألسنا بشر؟" .. فاطمأن قلبي.

طال حديثنا. تحدثت عن نفسها، عن تفاصيل كثيرة لم أكن أعرفها. أخبرتني عن والدتها المدمنة على الكحول، التي تركت لهم ذات صباح رسالة كتبت فيها: "أسفة، لا أستطيع العناية بكم" .. هكذا بكل بساطة تركتهم، فكان عليهم أن يعتادوا غيابها وأكبرهم لا يتجاوز الثامنة من عمره. بضع كلمات قلبت حياتهم رأساً على عقب وغيّرت مستقبلهم. حكّت عن والدها المسالم الذي لقي مصرعه في حادث مفرج أمام عينيها، ومنذ ذلك اليوم لا تجد إلا الطعام متنفساً لها، فانصرفت إليه. ما إن تشعر بالاكئاب حتى تنغمس في الأكل، فلم يعد شيء ينسيها أحزانها ويلهيها عن مشاكل الحياة سواه. عوّضت بمتعة الطعام جميع المتع الأخرى، حتى ازداد وزنها أرطالاً عنيدة اعتادت عليها مع الزمن. اختبرت الخوف من مرور العمر دون أن يتحقق حلمها بإنجاب طفل إلى أن عرفتني. أسرت بشيء من الخجل عن يقينها بأني لم أحبها لذاتها بل لحاجتي لها، لم أحاول أن أنفي ذلك أو أبرر شيئاً حيث كنت مقتنعاً من عدم جدوى أي تبرير الآن. أخبرتني عن رغبتها التي لم تفصح عنها لي قبل ذلك أبداً، إنها كانت تود رؤية أهلي وتحلم بزيارة وطني ومسقط رأسي.

أما أنا فحدثتها عن طفولتي، حكيث لها عن بيتنا الشامي القديم، عن شجرة النارج ورائحة الياسمين، عن أواني الفخار الزرقاء وأكلات والدتي الشهية، عن معمول الفستق الحلبي وشراب الورد، عن جدتي التركية من جهة والدتي التي لا تعرف التحدث بالعربية جيداً، عن

جدي الذي لم يستيقظ ذات صباح، فعرفنا أنه رحل عن عالمنا قبل أيام من سفره إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. حكيث لها عن تفاصيل صغيرة لم أتصور يوماً أنني سأذكرها بعد كل هذه السنين، أو أن أسردها على مسامع أحد.

تحدثنا في كل شيء. أخبرتها عن ذلك الجانب المعتم من حياتي قبل أن ألتقي بها وأنزوجهما، أخبرتها بكل شيء، كل شيء. كان الماضي كوزرٍ أثقل علي كاهلي وما إن بحث لها به حتى شعرت بشيءٍ من الراحة. تخيلي لو أنّ أحدهم أزاح عن ظهره حملاً ثقيلاً كان يحمله لأكثر من عشرين سنة، كم سيتخفف؟ وكم سيشعر بالراحة ما إن يتخلص من هذا العبء!

استهلكنا الوقت ونحن نتحدث حتى اندس الظلام بيننا كلصٍ محترف دون أن نشعر به. غمرني فجأة شعور بالأسى في تلك اللحظة، لأنني كنتُ مدركاً أن هذه الأمسية تحت ضوء القمر ما هي إلا أمسية وداعية. أحسستُ وكأن الأحزان كلها تجمعت بداخلي. صعبةٌ جداً هي الوداعات الأبدية سواءً على صاحبها أو على من حوله.. مرهقة.. متعبة. ودّعت أنا تلك الأمسية شمس الأصيل للمرة الأخيرة على شاطئ البحر الأحمر، وبعد ذلك بأسبوع ودعت الحياة بسلام.

اكتشفت أن الإنسان يصبح أكثر حكمةً قُبيل وفاته.. أكثر إظهاراً لعواطفه وحميميته.. وربما أكثر صدقاً أيضاً.

ما إن انتهت من القراءة حتى أعادت الرسالة إلى مكانها في الصندوق، وفجأة سمعت ضجة خارج غرفتها. خرجت فرأت أمي موزة وماما أسماء تتحدثان والدهشة تغلو وجهيهما، وبسرعة التفتت نحوها أمي موزة:

- هل عرفتِ ماذا حدث لبشير؟

- بشير.. كلا.. ماذا حدث؟

- لقد أغمي عليه من الفرحة!

- ماذا؟

- بينما كان في المطار جاءتة مكالمة تُعلمه فوزه بالسحب على جائزة قيّمة بمهرجان دبي للتسوق؟

- من شدة الفرح وجدّه المسافرون مغشياً عليه!

- كيف عرفتِ بذلك؟

- لقد اتصل بي قبل قليل.

- أخبرني أنها من الكوبونات التي أعطتها له ريم عندما ذهبنا لشراء أدوات الرسم. هل تذكرين؟

- بلى.. كيف أنسى؟ عندما أصرت ريم أن نحصل على البطاقات وما إن دخلنا السيارة أعطتها لبشير رغم تعجبنا من تصرفها.

ابتسمت ريم بينما كانت تستمع إليهما، وتذكرت بطاقات السحب الثلاث التي حصلت عليها مقابل مشترياتهم ذلك اليوم. شيئاً ما جعلها تعطي البطاقات للسائق، لكنه حدس أو شعورٌ بأنه في حاجة إليها أكثر منهم. إحدى البطاقات الثلاث أهلت بشير للفوز بمبلغ كبير سيغيّر الكثير من حياته ومستقبله.

بانكوك

"الابتسامة هي الطريق الأقصر إلى قلوب الآخرين"

مثل تايلندي

انتاب بوسلطان الفضول ما إن دخل الصالة عندما وجد الجميع يضحكون ويتحدثون في الوقت ذاته. أخبروه أن السائق بشير فاز بالسحب على جائزة قيّمة بمركز تجاري. ابتسم، وقال:

- "كل شيء يحدث بسبب.. ولسبب" ¹⁰!

تذكر حينها المرة الأولى التي رأى فيها بشير. لفت نظره الفتى الشديد السمرة ذا البنية الهزيلة الذي كان يتحدث العربية بلكنة حجازية مكسرة وهو الذي يشعر بعطفٍ بالغ على الأيتام. ربما لكونه مثله يتيماً لم يرَ والده قط.

هو عبدالله أو عبود اليتيم كما كان يعرفه أبناء الحي سابقاً. أما اليوم فهو بوسلطان أو عمي بوسلطان كما يطلق عليه الجميع. لا يذكر من والده سوى صورة باهتة بالأبيض والأسود في بدايات شبابه، وصورة أخرى بجانبه مع أخوته بينما كان والده يحمل أصغرهم على كتفه. غادرهم دهساً بسيارة سائق مبتدئ ودهست معه أحلامهم الصغيرة. كان وقع الخبر صادماً لوالدته. بادر الأهل والأصدقاء من أهل الخير إلى المساعدة، لكن سرعان ما اكتشفت الأم أن العبء كله سيلقى عليها وحدها. شابة لم تتجاوز الثلاثين وعليها أن تعيل أربعة أفواه والخامس على وشك الولادة.

حدثته والدته عن تلك الفترة. وجدت نفسها في فترة قصيرة مسؤولة عن إعالة خمسة أطفال صغار. اكتشفت أن زوجها لم يترك شيئاً يذكر سوى البيت الذي كانوا يقطنون فيه، لذا اضطرت للعمل كماشطة. كان بوسلطان أصغر أخوته لذا كان يرافقها غالباً ملتحفاً بعباءتها السوداء. يراقبها بينما هي كانت تزيّن النساء، وأكثر ما كان يبهره مراسيم تجهيز العرائس وكرنفال الألوان المبهرة. كان يندهش من التفاصيل المصاحبة لحفلات الزواج، من الحزام الذهبي الذي يلف الخصر، والمرتعشة التي تزيّن الصدر، والطاسة التي تغطي الرأس والخواتم الكثيرة في الأصابع، ونقوش الحناء التي تزيّن يدي العروس وأرجلها. كان يشعر أن كل عروس هي عروسه فهو من يراها قبل الجميع وهي في أبهى حلة، يشاركها فرحتها الكبيرة أو حتى خيبتها الكبيرة أحياناً. لم يستطع أن ينسى دموع تلك العروس التي قيل إنها تصغر زوجها بعقود. اضطرت والدها تزويجها ليسدد الديون التي تراكمت عليه. في تلك الليلة الحزينة لم تتوقف الأمطار عن الانهيار طوال الليل كدموعها الصامتة، عبثاً حاولت أمه إعادة رسم عينيها بالكحل في كل مرة تتلخخ بالدموع. كم بدت له تلك العروس جميلة ونقية بعينيها الدامعتين!

عشق الدموع منذ صغره. آمن دوماً أن الدموع قادرة على تطهيرنا وتخفيف آلامنا، تساعدنا على الاستمرار في هذه الحياة. تلك الدموع التي كانت تشارك أمه وحدثها وثرطب جفاف حياتها كل مساء بعد أن يفترش الأرض هو وإخوته من حولها وتتأكد من خلودهم إلى النوم أو كما كانت تظن. كان يراقبها من تحت لحافه المهترئ، لم يكن يجرؤ على البكاء بصوت حتى لا تشعر بأن أحداً يراقب حزنها. عندها كان يدعُ الله سراً أن يكبر سريعاً حتى يمسح دموعها بل أن لا يتركها تبكي أبداً.

في الصباح تتحول دموعها تلك إلى إشراقةٍ نهارية، نشاط وقدرة عجيبة على مشاركة الناس أفراحهم. منذ طفولته ارتبط الليل عنده بالحزن والنهار بالفرح. متيقنٌ من أن دموعنا الليلية تبقى أنقى وأصدق حيث لا يهتك سترها أحد. ما زالت أحزانه ودموعه لا تهطلان سوى في عتمة الليل حين لا يراه أحد، كتلك الليلة التي بكى فيها عند عودة مريم من بيت

زوجها. رغم أنها ليست ابنته الحقيقية إلا أنه منذ زواجه من أمها تعلّق قلبه بتلك الصغيرة وأحبها ربما أكثر من أمها.

أسماء.. ما إن رآها تعلّق بها واحتفظ بسرّها حتى اليوم. كان يومها قد تعدى الثلاثين ووضعها المالي في ازدهار والطفل الذي كان يحلم به لم يأت بعد. حينذاك لم يكن بحاجة للتفكير حتى يُقرر الزواج منها، ومع ذلك ظل مدةً طويلة غير قادر على النظر إلى عينيّ زوجته الأولى.

موزة.. ما إن تزوجها حتى تدفقت عليه ثروة لم يكن يحلم بها أبداً. لقد كان يعمل عند أبيها الذي اعتبره الولد الذي لم يُنجبه. استأمنه على أمواله وتجارته وعلى ابنته موزة لاحقاً، كأن القدر منّ عليه بالأب الذي لم يره. كيف يتزوج من أخرى وهي التي وقفت بجانبه؟ يشرق بالغصّة كلما تذكر نذالته معها، لكنه سرعان ما يبتلعها ما أن يكس أنوعاً وأشكالاً من المبررات تماماً كالحبوب المساعدة على الهضم التي بدأ يتعاطاها في الآونة الأخيرة.

صحته ليست على ما يرام وهو مدركٌ لذلك، لكن الوقت كان له بالمرصاد. كلما يقرر الذهاب إلى الطبيب حتى يأتيه عمل طارئ فيؤجل كل شيء. في سفرته الأخيرة إلى شرق آسيا اقتطع يومين وسافر إلى تايلند. قام بفحوصات شاملة في المستشفى الملكي، لم يطمئن كما كان يُمني نفسه.

كانت الأمطار تتساقط بغزارة على زجاج نافذة السيارة التي كانت تقفه إلى الفندق من المستشفى، بينما كلمات الطبيب ترن في أذنه بشدة تلك الأمطار. يخبره عن نتيجة الفحوصات التي أجراها كأنه يقرأ خبراً عادياً في جريدة محلية. يتأمل وجه الطبيب بملامحه الشرق آسيوية والخطوط التي تغزو ما حول عينيه في محاولة عقيمة لمعرفة ردة فعله أو تأثير الخبر عليه. لم يبدُ عليه التأثر، ولم تتغيّر ملامحه. هل يا ترى مرت عليه من الأمراض والعلل ما يجعله بارداً حيال خبر كهذا؟ بعض الأشياء غير العادية يجعلها التكرار في حياتنا مألوفة جداً، فالمسألة هي التآلف والعادة إذن.

لكنه لم يستطع أن يتألف مع حياة العوز التي عاشها كإخوته. لم يكمل دراسته بل عوضاً عن ذلك انخرط في مدرسة الحياة. تعلّم منها أن المادة هي كل شيء أو أنها ستقودك إلى كل ما تنشُد كما هو يعتقد. اكتشف أن كل من كان يحتقره أو يستصغره في زمنٍ مضى قد انقلب إلى النقيض تماماً، هاله ذلك رغم أنه يرضي غروره. إنه يعرفهم جيّداً بل ويحلو له أن يتماهى معهم ويسايرهم وكأنه مصاب بفقدان الذاكرة. يمرّ الزمن وتزداد ثروته أضعافاً مضاعفة لينتقل إلى مصاف الأثرياء، فيخفت عنده تدريجياً هوس عدّ الأصفار في حساباته البنكية ويبهت بريق الثروة التي طالما حلم بها. لم تجعله الثروة أكثر سعادة كما كان يعتقد بل ازداد توجساً وحيرة. حقيقة اكتشفها مؤخراً وهي أنه كلما ازدادت ثروته، ازدادت همومه. يراوده حلم مزعج بأنه سيفقد كل الثروة التي جمعها خلال السنين التي مضت، فيسعى جاهداً لإحكام قبضته على كل ما يملك، فيعيش في قلقٍ مزمنٍ لا يستطيع التخلص منه. يجوب الأرض شرقاً وغرباً ليتأكد من مجرى استثماراته، يتواصل مع البنوك ليل نهار ويراجع حساباته وقروضه، ويراقب تحركات الأسهم أكثر من مراقبة تحركات أبنائه. حتى هم اكتشف أنه لا يعرفهم جيّداً، وكأنهم كبروا فجأة أو خلصة عنه. مضى الزمن وهو منشغل بجمع الثروة التي أثقلته فأنسته حتى الأبناء الذين طالما حلم بإنجابهم.

نظر إلى مريم. لقد نحلت كثيراً في الفترة الأخيرة، كيف لم يتنبه إلى ذلك؟ دخلت إلى حياته كحلم، كأمنية، بل كحقيقة هي الأجل في حياته. والدها هجر أمها قبل أن تبصر النور وربما قبل أن يعرف أن هناك مَنْ ينتظره ليكون له أباً. هرب والدها تاركاً زوجة حبلى في شهورها الأولى والكثير من الأسئلة المعلقة. ولدت الزوجة وبقيت الأجوبة كما هي بين كفتي التخمين والحقيقة. لا يدري كيف يتخلّى أحدهم عن فلذة كبده؟ ألا يعرف أن هنالك من ينتظر عمراً يحلم بطفل؟

أهدته كلمة غالية، كلمة أبي، فأهداها اسمه. تبنّاها فأصبحت ابنته بالتبني. كبرت قليلاً فأخبروها أن والدها الحقيقي في السماء. على عكس مخاوفهم وتوقعاتهم لم تكثر كثيراً ولم تسأل، فقط قالت: "عندما أكبر سأراه". وانطلقت تُشارك فيصل اللعب. حتى زوجته موزة أحببتها. ليس متأكداً ولكنه يشعر أنهما يحبانها أكثر من أمها الحقيقية. تحب أسماء

أبنائها الذكور أكثر من مريم وريم، وهو قلقٌ من ذلك. إن رحل عن هذه الدنيا هل يستطيع سلطان المدلل أن يتحمل المسؤوليات التي ستلقى على عاتقه؟ ثرهقه وثقلقه هذه الفكرة.

في زحمة هذه الأفكار وثقلها، أتته ريم بخفة واحتضنته. كم يُحب هذه الفتاة! تراوده أمنية أن يمتلك روحاً كروحها، لا يكره، لا يبغض، لا يؤذي. كم يحتاج إلى كل ذلك في عالمه حيث الكثير من النفاق، الحسد والبغضاء. عندما ولدت لم يعرف لما تغيّر وجه الطبيبة بينما كانت تُخبره عن المولودة المصابة بخلل جيني والتي بحاجة إلى عملية طارئة لقلبها الصغير.

أخبره الطبيب المختص:

- عادة، يولد هؤلاء الأطفال بعيوب خلقية، وهم بحاجة إلى عملية بعد الولادة.. إنها عملية ليست صعبة تُجري مثلها كثيراً فلا تقلق.

يتناوب بنظراته ما بين الطبيب وبين الطفلة التي لا يبدو عليها أي شيء غير طبيعي ومألوف، لكن لا بد وأن الطبيب يعرف أفضل منه. ينظر إليه بعينين ساهمتين:

- افعل ما تراه مناسباً. توكل على الله.

يخرج من المكان، وتجري العملية لابنته. يمر عليه شريط حياته، عشر سنوات ينتظر طفلاً، وعشرٍ أخرى يرزق خلالها بسبعة أطفال، بعدها يقررون التوقف عن إنجاب المزيد. كلمة غريبة في قاموسه؟ التوقف عن الإنجاب وهو الذي كان يحلم بإنجاب طفل. تأتيه ريم دون توقع أو انتظار، في الوقت الخطأ كما تقول أمها أسماء. ولكنه لا يحب هذا التوصيف، فريم هبة من الله.

همست ريم في أذنه:

- بابا.. بابا .. سأخبرك شيئاً.

- ماذا؟

- التذاكر .. كنتُ أعرف ..

- أية تذاكر؟

- بشير .. بشير .. كنتُ أعرف بأن إحدى هذه التذاكر ستفوز.

- هههه .. حقاً كيف عرفتِ ذلك؟

- لقد أخبرتني فرشاتي بذلك.

- فرشاتك؟

- ششششش .. أخبرتني أن لا أخبر أحداً بذلك.

ضحك واحتضنها بشدة، إنها تنسيه همومه وآلامه. حينها قرر أن يتمسك بالعزيمة والإصرار في مقاومة المرض بكل شجاعة وإرادة صلبة، فإن لم يكن من أجله فمن أجل هذه الصبية التي يُحبها حباً يفوق الوصف. لم يحبطه الطبيب، كل شيء قابل للعلاج. سحبتة ريم من يده وأخذته إلى غرفتها، لتريه لوحتها التي أكملتها، فتبعها بفرحة غامرة تسري في أعماقه.

بعد قليل نادتهم أسماء لتناول الغداء، فتجمعت العائلة حول طاولة الطعام. قلما تجتمع العائلة معاً بهذه الصورة. تأملت أسماء الطاولة العامرة وتذكرت عشاؤهما الأخير معاً قبل حوالي ثلاثين سنة.

لم يكن هنالك ما يشي بأنه سيغادرها صباح اليوم الذي يليه حيث دعاها إلى تناول العشاء في مطعم راقٍ كعادته. كان أنيقاً وسيماً ككل يوم. انتقى من الطعام أكثره بذخاً. أرادت أن تخبره عن حملها إلا أنها فضّلت أن تفاجئه بالخبر في اليوم التالي عند الطبيب، لكنه ذاب كقطعة سكر بعد أن عاشت معه أحلى أيامها.

كانت متأكدة من أنه لن يعود إلا أنها كانت تُكذب ظنونها، حتى وصلتها تلك الورقة التي جعلتها تستفيق من أوهامها. بعد رحيله مارست الانتظار كطقس يومي ولم يأت، مارست النسيان فلم تتعلم. حيناً تبدو قوية متماسكة وكأنها غير آبهة برحيله، وحيناً هشة لا تفكر سوى بغيابه. وبين الانتظار والنسيان مسافة بقدر الحنين والشوق، كان صعبٌ عليها اجتيازه.

رحل دون مبررات أو مواجهة. انحسر من حياتها كموجة هاربة، ما جعلها تعيش في قلقٍ مستمر من أن تفقد من تحبهم دون سابق إنذار. لقد تغيرت وهي تُدرك ذلك! أصبحت تُدقق في أصغر تفاصيل الأشخاص من حولها وتراقب أي تصرف قد يشي برحيلهم. تُحاصرهم ولا تُطبق خروجهم، حتى أصبحت مع الأيام تثور لأتفه الأسباب، لكنها على الرغم من ذلك تمتلك قلباً رقيقاً سريع الغفران، لكن مهلاً.. ذلك لا يعني أنها سامحته.

بعد رحيله كانت أسماء تراه في كل مكان وفي كل شيء، كل الزوايا والصور. تجده في كتبه ودواوين أشعاره التي دسها بين أرفف المنزل، تلك الكتب التي تشبهه ولا تشبهها. تستعيده في هداياه الثمينة القيمة التي تركها. هربت من الأمكنة والأشياء لتهرب منه، بل غادرت المدينة بأسرها لكنها لم تستطع الهروب منه، وها هي ابنته تُنعش ذاكرتها لتعود إليه مرة أخرى.

كلما تتأمل مريم يُدهشها الشبه الكبير الذي يجمعهما. أليست ابنته؟ أم إنها صدقت كذبتها فعلاً؟ كل شيء فيها يعيد إليها صورته التي تكذب ظنونها بأنها نسيته، من صوتها الهادئ وحديثها المتزن، عينيها الواسعتين وخط حاجبيها المقوس ونظراتها الهائمة اللتين تسرحان بعيداً في اللامكان ما إن تتعمق في التأمل. حتى حركة رأسها الذي ترفعه قليلاً ما إن تضحك تستطيع أن تجزم أنها لم ترها عند سواه. شغفها بالرسم أكد لها أن جيناته تسري فيها مهما ادعت غير ذلك. هذه الفتاة تذكرها به وهي التي طالما جاهدت على نسيانه، كلما تكبر يزداد الشبه بين الأب والابنة، وتزداد هي كدراً وغماً وبعداً عن ابنتها. تحاول نسيان الأب بانشغالها عن الابنة لكن ذاكرتها تأبى النسيان. كلما حاولت الهروب يزداد الماضي

التصاقاً بها، ثم بعد كل هذه السنين تتفاجأ به يدخل حياتها دون إنذار تماماً كما خرج منها. قبل سنوات اكتشفت أنه من اشترى المنزل المجاور لهم أي أصبح جارهم الجديد، وما زادها قلقاً أن الفتاة بدأت تسأل عنه وتتردد على حديقة منزله المفتوحة بين حينٍ وآخر. حاولت أن تمنعها بشتى الذرائع فلم تستطع، إلى أن وضعت الأحداث الأخيرة في سوريا حداً لهذه العلاقة فهذاً من روعها. تلوم نفسها كلما تساورها فكرة أن الثورة والنزاعات التي تشتعل في موطنها كانت لصالحها. يتزايد عدد الضحايا وجل ما كانت تفكر فيه أنها استطاعت أن تُبعد ابنتها عن جارهم فتؤولمها الفكرة. في نهاية كل يوم تلمم تلك الأفكار وترمي بها جانباً في مكانٍ قصي، وتتنهد لأنها استطاعت أن تتخلص مما كان يؤرقها.

جاء أبو سلطان لينتشلها من حالة الحزن التي كانت غارقة فيها، عطية من السماء أتى دون تمهيد. ما إن رآته حتى أحست بأن هذا الشخص ستكمل معه مشوار حياتها مع أنها لم تكن تفكر في الزواج مرة أخرى. أحبها وأحب الطفلة الصغيرة كابنته، حتى إن زوجته الأولى تعلقت بها. تعترف بأنها تغار أحياناً من أن ابنتها مرتبطة بموزة أكثر منها، رغم أنها سعيدة وممتنة لها. لم تملك الاختيار وإلا لما تزوجت رجلاً متزوجاً. لو عادت بها الأيام إلى الوراء، هل كانت ستوافق على الارتباط برجل متزوج؟ يشاكسها هذا التساؤل بين حينٍ وآخر، يتركها تتأرجح في الإجابة بين اللا والنعم، كتلك الأرجوحة التي كانت تلعب بها مع أختها في ذلك الزمن البعيد. كان يحلو لهن اللعب على الأرجوحة التي بناها والدهن بين أشجار حديقة المنزل ما إن يعدن من المدرسة. ترتفع شاهقاً فتري ما حولها يصغر شيئاً فشيئاً، لكنه ما يلبث أن يرجع إلى حالته الأولى ما إن تهبط إلى الأسفل، فتتعلم أن لا تنظر إلى الأمور من أعلى، بل أن تمعن النظر من الارتفاع ذاته. تكبر الطفلة التي لم تتصور مطلقاً بأنها ستعيش يوماً خارج نطاق منزلهم، لتعيش في بلدٍ يبعد كثيراً عن موطنها. تغادر مدينتها لكنها لا تستطيع أن تغادرها مطلقاً.

في الحياة نقابل مدناً كثيرة لكن في أعماقنا تبقى مدينة وحيدة..

لا تغادرنا..

لا نغادرها..

تسكن فينا ونسكن فيها..

نتلهف لرؤيتها..

نحن إلى سماع اسمها..

تنقر في الذاكرة كطائرٍ أنيقٍ فيُشعل فينا اللففة والحنين..

أبوظبي

"الأمنيات التي لا تتحقق بسرعة تمنحنا وقتاً للدعاء والتأمل".

ياسر حارب

(كاتب إماراتي)

تغمرها اللفهة وهي في طريقها إلى العاصمة، تحب أبوظبي وتعشق شوارعها الرائقة الهادئة التي لا تشبه مدينتها الصاخبة. تأملت هاتفها مُنتشية وقرأت الرسالة النصية التي وصلتها كهديّة صباحية غير متوقعة. قرأتها بصوت لا يسمعه سواها: "صباح الخير.. سألقي اليوم في الساعة الخامسة مساءً محاضرة بجامعة السوربون في أبوظبي.. بوجودك تكتمل سعادتِي.. حضورك يعني لي الكثير.. أتمنى أن أراك".

ازدادت يقيناً بأننا حين نُختار لقدرٍ ما فإن كل الظروف سئُعيدنا إليه حتى وإن ابتعدنا عنه لفترة ما، حتى وإن مرّت السنين وجزمنّا أنه لم يكن يوماً لنا. منذ ذلك اليوم الذي رأته في أول أيام يناير لم يغب عنها، وكأنه لم يغب ولو يوماً واحداً لا سنيماً. أكان عليها أن تبتعد عنه لتراه؟ أكان عليه أن يبتعد عنها لتشعر بحاجتها إليه؟ أكان عليها أن تعيش مع غيره لتعرف كم هو رائع ومختلف؟ وأنها لا تستطيع أن تكمل حياتها من دونه؟ أدهشتها التفاصيل العالقة بذاكرتها بعد مرور كل تلك السنين.. فأدركت أن الذاكرة المفعمة بالحب والوفاء لا يخالها النسيان!

تحمل في حقيبتها رسالة عمو حسن الأخيرة، متشككة من صحة قرارها، تريد أن تخبره بكل شيء، بحقيقة مشاعرها وما تحمله هذه الرسالة الأخيرة من حقائق. فتحت الحقيبة

فشعرت وكأن عبق الياسمين انتشر في المساحة من حولها، فأغلقت الحقيبة خشية أن يكشفها العبير ويُسرّب محتواها.

لن تستطيع تحمل هذا الأمر مطولاً. تؤلمها فكرة أن والدها الحقيقي كان حياً يرزق ولا تعرف هي بذلك إلا بعد ثلاثين عاماً يكون عندها قد فارق الحياة! هل كانت أمي موزة تعرف بذلك؟ وإن كانت تعرف هل ستتغيّر المشاعر التي تكنّها لها؟ خائفة من الحقيقة، خائفة أكثر أن تُغيّر نظرتها للأشخاص من حولها. منذ أن عرفت بالحقيقة يصعب عليها أن تنظر في عيني والدتها مباشرة، تود لو تصرخ وتخبرها عن كل ما يعتمر قلبها من لوم وعتابٍ وقهر، لكنها تصمت. لقد أصبح الصمت ملاذها الآمن بعد أن تغيّر كل شيء.. كل شيء.. لم يعد شيئاً كما كان أبداً.

ليست متأكدة مما تنوي فعله، لكنها بصدد إخبار أمي موزة بكل شيء، وفيصل كذلك، رغم أنّ هذه الرسالة قد تفرّقهم أو تجمعهم للأبد. لكن هل هناك شيء أبدي؟ تتساءل بل ويؤرقها هذا التساؤل. نظرت نحو نافذة السيارة فرأت رجلاً يمسك بيد طفليه ليعبر الشارع والأم خلفهم تجر عربة يجلس فيه طفلهم الرضيع. أياكون هذا الرجل والدهم أم زوج الأم؟ هل أصبحت تتخيّل أنّ كل من تراهم يحملون شيئاً من قصتها؟ تلك القصص التي لم تكن تراها سوى في الأفلام والمسلسلات. صدمت كون الواقع أحياناً يكون أكثر مدعاة للدهشة. تستعيد ما كُتب في الرسالة الأخيرة وآهة لا يسمعها أحد تتردد في أعماقها.

الرسالة السابعة

إنها الرسالة السابعة والأخيرة.. ربما..

وربما سأكتب غيرها كثيراً.. لكن هل سيقروها أحد؟ وهل ستصلك؟

كاذبٌ من يدعي أنه يكتب لنفسه!

إنه يخفي اعترافاً كامناً بأن لا أحد يريد أن يقرأه أو يهتم بما يكتب!

عندما نبوح للأوراق بمكنونات قلوبنا فنحن نريد من يسمعها. ليس بالضرورة أن نبوح بما نريد بصراحة وفجاجة، أحياناً يضيء بعض الغموض حضوراً أجمل. أحياناً تكمن حكاية بين سطر وآخر، تفجع بدمعة في كلمة، تكتشف رغبة في جملة استفهامية، وتجد اسماً في جملة فعلية، وقد تبدأ قصة جديدة بعد نقطة في نهاية الجملة.

قد تتساءلين: هل يستعرض هذا الرجل عضلاته الكتابية عليّ؟ هل يا ترى يُجمل صورته عن طريق الكلمات؟ أقولها بصراحة نعم.. أريد أن أترك لك شيئاً جميلاً قبل رحيلي لعله يمحو بعض البشاعة التي تركتها ورائي..

جمعنا الحب وفرّقنا الحب. كيف؟ لا أعرف كيف هربت من كل الذين أحببتهم في حياتي. تزوجتها بعد قصة حب رقيقة جمعتنا، سكنت مع أهلها الذين لم يُرزقوا بغيرها هي وأختها. كانت حياتنا سعيدة لكن السعادة لا تكتمل.

كنت أعمل صحفياً في إحدى الصحف الشهيرة، ثم في أحد مقالاتي انتقدت إحدى الشخصيات الشهيرة ذات النفوذ فكانت تلك بداية نهايتي. نُبذت من الصحيفة ومن كل مكان. لم أكن أعرف أن من الكلمات ما قد تقتلك في لحظة.. بإمكانها أن تُنهي مستقبلك. مررت بضائقة مالية، لم أصارح زوجتي وأهلها. كنتُ أحاول دوماً أن أعيش على نفس مستواهم وأنا الذي أنحدرُ من مستوى عائلي أقل منهم. جاهدت حتى أبعد تلك المسافة الفاصلة بيننا إلى حد الإرهاق. اشتري من الهدايا أئمنها لتحملها والدتي عندما تأتي لزيارتنا. أنفق بسخاء على ملابسني وهيئتي حتى لا أظهر بمستوى غير لائق. كان ذلك يروق لي في البدايات لكنه بعد فترة بدأ يُرهقني وخاصة بعد أن أصبحت عاطلاً عن العمل.

اضطرت أن أقدم على ديون فوق مقدرتي. ازدادت الديون وازددت في الإنفاق والبخس حتى لا تستشعر زوجتي وأهلها بضائقتي المالية، لم أصمد مطولاً. إلى متى سأتحمل هذه الحياة؟ أن أبدو في النهار أمام الجميع مبتسماً خالياً من الهموم، وفي الليل تنتهك الديون راحتني. تناسلت الديون وتكاثرت حتى أصبحت أضعافاً مضاعفة، فكان أمامي إما الهرب أو الحبس لسنوات قد تطول.

كان الوقت يمضي كخناجر تنغرس في قلبي وروحي. كيف أهرب؟ وإلى أين؟ كيف أترك كل شيء؟ هل سأخبرهم؟ أودعهم؟

هريث كالجبان.. كان القرار صعباً ومؤلماً، إلا أنني لا أنكر تأقلمت معه بل وتماهيت كحرباء يتغير لونها بتغير المكان. لم أكن أدرك أن المرأة التي تركتها كانت تحمل طفلة مني؟ تصويري متى عرفت؟ بعد حوالي سبعة وعشرين عاماً!

شدتني تلك الفتاة التي لا تخرج دون أن تغطي شعرها بوشاحٍ فلا يظهر منها شيء سوى بعض الخصلات الكستنائية الثائرة التي تتمرد أحياناً عن أخواتها. ذكّرتني بجذتي التركية التي كانت تغطي شعرها بحجاب ملونٍ حريري تربطه أسفل ذقنها. كانت تشبهها، لون العينين الحائرنفسه بين الرمادي والأخضر والعسلي، الجسد الضئيل والبشرة الفاتحة. عندما سألت عنها أخبروني أنها ابنة جارتنا السورية المتزوجة من رجل إماراتي، يزورون دمشق كل صيف ثم يكملون إجازتهم إما في أوروبا أو صلفنا الساحلية.

ذات صباح صيفي ملبد بالغيوم على غير العادة انقشعت الحقيقة أمامي. بينما كنت أحدثها عن الخط العربي وأنواعه أخبرتني أنها في خلال أعوامها السبعة والعشرين لم تكتشف جمال الخط العربي سوى اليوم. نظرت نحوها مستغرباً فقد كنت أعتقد أنها أصغر من ذلك بكثير. بدت لي مراهقة لم تتجاوز الثامنة عشرة بقامتها الضئيلة ووجها الخالي من المساحيق. عندما أخبرتها بذلك، قهقهت فرحة ثم قالت:

- حتى ماما أسماء تغريني بالطعام حتى أسمن قليلاً فأبدو أكبر سنّاً.. على فكرة سأكمل السابعة والعشرين بعد شهرين.

بالكاد بلعث رريقي وابتسمت ابتسامة متكلفة:

- لو أنجبث ابنة لكانت في عمرك.

- أليس لديك أبناء؟

- ابن واحد.

- لا ابنة لديك؟

- ممم.. ربما.. لو..

تعجبت..

- ربما؟ كيف؟

- كلا.. أقصد أتمنى لو كانت لي ابنة مثلك..

ابتسمت وقالت:

- إذن.. اعتبرني ابنتك.

انتفضت ثم أجبتها:

- بلى.. أنتِ ابنتي.

سألها مرة أخرى:

- والدتك اسمها أسماء؟

- بلى وهي من الشام.

هبط السؤال بسرعة قبل أن يقف في حلقي إلى الأبد:

- ووالدك؟

- توفي قبل ولادتي.

ثم حوّلت بصرها عني إلى لوحة الخط التي كنتُ أرسّمها، وبدأت تسألني عن خط الثلث في محاولة لطيفة منها لتغيير دفة الحديث، وخيراً فعلت.

ما إن خرجت حتى انسحبت إلى نفسي.. لقد عرفت الآن سر تعلّقي بها! لم أكن بحاجة لمعرفة أنها ابنتها وتاريخ مولدها يشي بأنها ابنتي.. في اليوم الذي يليه تأكدت من ذلك..

إن سميتها مريم.. مريم التي لم أعرفها إلا متأخراً.. لكنها تركت ذاكرتي مفعمة بحبها وبصورتها التي لا تفارقني.. لا أستطيع أن ألوّم والدتها على إخفائها خبر حملها وولادتها فأنا من هرب.. أنا من ترك كل شيء خلفه ورحل..

حاولت أن أتناسى وأترك حياتك تسير على الوتيرة ذاتها، أن أكون بالنسبة إليك كأبي غريبٍ عابرٍ أو جارٍ لطيفٍ بالكاد تعطفين عليه وتكنين له شيئاً من الود ممتزجاً بالشفقة، إلا أنني لم أستطع.. خفت أن يطول غيابك بعد رحيلكم الأخير خلال الاضطرابات التي بدأت تشهدها الشام، ففضلتُ كتابة هذه الرسائل إذ عجزت عن الكلام. عندما تقرئين هذه الرسائل لا أعرف ماذا سيكون مصيري ومصير الشام؟ أمتشابهان نحن؟

صدقيني.. لن أغضب إن لم تتواصلي معي.. إن لم أجد منك رداً.. فأنا الملام.. لكن تأكدي أنني لن أنساكِ أبداً..

ويكفيني أن أتمس من ذكراكِ بعضاً من الفرحة..

ثقي..

أنه في ذلك اليوم الذي رأيتكِ فيه..

ومن فرط اللهفة..

شعرتُ بقلبي شدّ رحاله إليك..

ومنذ اليوم الذي رحلت فيه..

ومن فرط الحنين..

بنيث في قلبي مدينة تشبهك..

والدك..

من خلف نظارتها الداكنة انزلت دمعة من عينيها لم تستطع أن تقف في طريقها. حاولت أن تمسحها بحركة خفية كأنها تُعدل من وضع النظارة. في اليوم الذي أدركت فيه رسالته الأخيرة لم تُدرکه. حاولت الاتصال به، فعرفت أنه رحل عن عالمنا منذ أيام.

ما هي إلا بضعة أيام لكنها غيّرت من كل شيء! لو أنها فتحت الرسائل من قبل؟ لو أنها قرأتها ما إن استلمتها من الصبي الذي كان يعمل لديه؟ لو أنها لم تتركها حبيسة الأدراج كل تلك الفترة؟ لو أنها حدست بما كان ينوي أن يخبرها به؟ لو أنها فهمت قليلاً؟ لو أنها.. هذه اللو التي بدأت تُتعبها.. تخنقها.. هذه اللو اللعينة التي لم تعد تنفع.. لم يعد لها جدوى.. لو.. التي تعبت من استجدائها..

شدّها من نافذة السيارة مسجد الشيخ زايد الكبير، نظرت إلى الساعة كان الوقت ما زال مبكراً على محاضرة فيصل.

- أمي موزة.

- نعم يا ابنتي.

- ما رأيك أن نذهب إلى جامع الشيخ زايد لأداء الصلاة.

- لا بأس.. نذهب لأداء صلاة العصر.

ما إن دخلنا المسجد الذي يعج بالزائرين حتى انزويتا في إحدى الزوايا. أدت السيدتان صلاة العصر بعد ركعتي تحية المسجد. وحالما أنهت مريم صلاتها وقعت عينها على طفلة صغيرة بجانبها، كانت تُقلد أمها في الصلاة، وتعديل من وضع غطاء شعرها في كل ركعة وسجدة. تمت لحظتها استعادة طفولتها في ذلك الزمن البهيج عندما كانت تتبعه في متاهات المنزل الكبير. سألتها فيصل ذات يوم: سمعت أن عمي بوسلطان ليس والدك الحقيقي، أين هو والدك؟ ردت عليه: أبي رحل إلى السماء، لكن بوسلطان هو أيضاً أبي وأحبه كثيراً. سألتها: هل تفتقدينه؟ ردت بسذاجة طفولية: لا أعرف! لم أراه أو أعرفه حتى أفقده أو أشتاقه، هيا بنا نكمل اللعب في الحديقة. يركضان نحو الحديقة وجل ما كان يشغلها أن لا ينتهي اللعب وأن لا يمر الوقت سريعاً. هل يُستعاد الزمن يا ترى؟ محال!

صلت ركعتين، ثم تضرعت إلى ربها بالدعاء، راجية الصواب لما هي بصدد فعله: "اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب".

خرجت الشابة من المسجد وهي تشعر بالطمأنينة وراحة البال. تأملت الغيوم التي غطت شمس نيسان اللطيفة، وكأنها تبشر بأمطار ربيعية على غير المعتاد في هذا الوقت من العام. شدها منظر خيط من أشعة الشمس اخترق السحب واختار طريقه بينها، ليتحول إلى قوس من ألوانٍ بديعة. أيقنت حينها أنه مهما تمر في حياتنا عوائق وصعوبات لا بد وأن هنالك طريقاً نحو الخلاص.. لعله أكثر بهاءً ودهشة.

الرسالة التي لن تصل

ألقي النظرة الأخيرة على لوحاتي في المعرض قبل أن تُغادرني، أحرق فيها بإمعانٍ مفرط كأنما لا أريدها أن تُغادر ذاكرتي.. لكن الفراق أضحى وشيكاً.. أودعها، يغمرنى الحزن على رحيلها.. ربما لأنها المرة الأولى التي ستفارقني فيها إحدى لوحاتي إلى الأبد. ينتشلني مسؤول المبيعات مما أنا فيه ليبشرني بأن اللوحات كلها بيعت بمبلغٍ جيّد، أذكره بأسماء المؤسسات الخيرية التي تُعنى بالأطفال المعوزين واليتامى، وأطلب منه أن يتواصل معهم صباح الغد وبأسرع وقت.

أمضي.. أعود إلى المنزل مرهقة بعد يوم حافل، الوقت متأخر ولا بد أن الجميع قد خلد إلى النوم. أدلف إلى غرفتي دون أن أصدر أي صوت، أخلع عباءتي، أستلقي على السرير واضعة يداي خلف رأسي، وأتأمل سقف الغرفة.. اللا مكان.. اللا شيء. أشعر بأنني في حلم لا أود أن أستيقظ منه.. كأنني شخص آخر.. كأن الحكاية لا تعينني. تلك مريم أخرى.. تشبهني.. أعيش حياتها.. لكنها ليست أنا.

أسمع طرقاتٍ خافتةٍ على الباب، أعرفه من طريقته المميّزة في طرق الباب، طرقتان ثم يتريث قليلاً فيتابع طرقتين مرة أخرى وهكذا.. أنهض وأفتح الباب.

- مريم.. كيف حالك يا ابنتي؟

- الحمد لله.

- كيف كان المعرض؟

- رائعاً.

- سمعتُ أنك قد أبليتِ بلاءً حسناً.

- نعم يا أبت، لقد جرت الأمور بشكلٍ جيّدٍ وبيعت جميع اللوحات.

- كنت أود الحضور يا ابنتي إلا أنني..

- لا بأس عليك يا أبي. أعرف ظروفك وانشغالاتك الكثيرة.

- لكم أنا فخور بك.. حقاً كان بودي أن أكون معك في تلك اللحظات.

- شكراً لك يا أبي، ربما في المعرض المقبل إن شاء الله. كم أنا نادمة على كل هذه السنين التي أضعتها، ليتني لم أستسلم للحزن والكآبة.

- تذكري يا بنيّتي أن بعض الأشياء نحصل عليها متأخراً.. بعض الأمور نكتشفها متأخراً.. وبعض الناس نعرفهم متأخراً. قد نجهل السبب حينها، وربما يقودنا نزق طفولي لنبحث عن أحدهم فنلقي اللوم عليه، لكننا على الأرجح سنكتشف سبب ذلك التأخير.. ولكن متأخراً أيضاً. ما يهم هنا، أنه لا فائدة من تكرار لوم أنفسنا، إن ارتكبنا أخطاءً فيما مضى، وكذلك من لوم من نحبهم إن هم اقترفوا أخطاءً في حقنا. بعض الأخطاء يا بنيّتي كالقطار ما إن نرتكبها، فلا نستطيع العودة عنها إلى البداية.

لا أدري إن كان يقصدنا بكلامه؛ أنا، أمي وهو.. هل علم باكتشافي للحقيقة، لذا انتهز الفرصة ليحدثني عن الموضوع بشكل غير مباشر؟ ربما. الهالات السوداء حول عينيّه التي ازدادت مؤخراً قد تشي بتعبه وقلقه من شيءٍ يعتمر في داخله، إلا أنني أتمنى من أعماق قلبي أن أكون مخطئة وأن تكون مجرد آثار لقلة النوم. أحتضنه.. أعده أن أفكر بما قال وأن أقنع به. لم يكن أباً مثالياً إلا أنني كنتُ وما زلتُ أحبه، لم أشعر يوماً أنه ليس والدي الحقيقي ولم يُشعرني هو يوماً بغير ذلك، على العكس من ذلك، لطالما أشعرني بأني طفلة المحبوبة المدللة. يتمنى لي ليلة سعيدة.. أقبله وأتمنى له ليلة سعيدة كذلك.

يخرج ويتركني في الغرفة لوحدي لأدرك أنني لا أحلم وأنني مريم.. الفتاة التي اكتشفت أن أباها الذي طالما اعتقدت أنه توفي قبل ولادتها كان على قيد الحياة ولم يكن يعرف أن

لديه ابنة تعيش بعيدة عنه. كنت أعتقد أن أشياء مثل هذه، قد تحدث في المسلسلات التي تشاهدها ماما أسماء أو في الروايات التي تقرأها أمي موزة أو في الأفلام التي تعرض في دور السينما والقنوات الفضائية، أشياء لا تحصل مع أناس عاديين في الحياة.. لكنها حصلت معي.

حتى الآن لا أستطيع أن أخرج من فكرة أن كل ما سبق حقيقة وليس من وحي خيال كاتب يحاول أن يُبهر قراءه، أو سيناريو لفيلم يحاول مخرجه تحقيق مكاسب عالية وربما جوائز عالمية. أحياناً يكون الواقع أكثر مدعاة للدهشة من الخيال، يحيك تفاصيله بشكل متقن لدرجة لا تظهر معها أية أخطاء أو سقطات.

لم أخبر بذلك حتى الآن سوى أمي موزة التي لم تكن تعرف بذلك مسبقاً وفيصل. لم أجرؤ على مصارحة ماما أسماء حتى الآن، جلّ ما خشيت أن يذوب حبي لها في قلبي رويداً رويداً.. حتى تتلاشى كشمعةٍ تذوي أمامي. بذلت جهداً مضاعفاً لأبحث لها عن الأعذار والأسباب، أرقعها معاً لتناسبني، فأرتق بها روعي. "هي أمي، ولا بد أنها تحبني" هذا ما كنتُ أردده وما مللتُ من ترديده، رغم أنني لم أكن مقتنعة به كثيراً على أية حال، إلا أنه ساعدني على بقاء حبيها في قلبي. لا أنكر أن شيئاً ما بيننا لن يعود كما كان قبل أن أعرف الحقيقة، شيئاً ما قد هوى وانكسر، فأحدث صوتاً سمعته بأذني.. ثم صمت للأبد. مع مرور الوقت وجدت نفسي قادرة على حبها بشكل مختلف، لا أعرف كيف أصفه.. لعله أكثر تعقيداً.

تواصلت مع آدم، الذي يفترض به أن يكون أخي، شاهدتُ صورته، لا يشبهني في شيء. أشقر عيناه زرقاوان، يتحدث العربية بلهجة سورية مهجنة وإن كان لا يعرف أن يكتب بها. قررنا أن نتقابل في نهاية الصيف القادم بمدينة لندن، سأكون عندها مع فيصل في شهر العسل. لا أعرف بأية صفة سأقابله؟ كيف سيكون؟ عن ماذا يا ترى سنتحدث؟ عن والدي؟ والدنا؟ حياتنا؟ عن عمو حسن؟

عمو حسن.. أبتلعُ حزني بمرارة كلما أشرق اسمه في ذاكرتي. أحاول أن أستعيد نظراته الساهمة نحوي، توسلاته الخفية المستجدية لإبقائي معه لأطول وقت ممكن، أسئلته الخجلى لمعرفة بعض الأمور عني، لعلمي أستشف من خلالها ما كان يريد أن يخبرني به. لم أستوعب ماذا كان يريد، حيرني وحيرته.. يؤلمني أنه بقي ينتظر مني رداً على رسائله حتى آخر أيامه. لو أنني قرأت رسائله أول ما وصلتني؟ لو أنني لم أقع فريسة الحزن الذي أنساني حكاية الرسائل؟ لو أنني لم أتطلق؟ لم أتزوج؟ لو أن الثورة لم تندلع؟ الاضطرابات لم تستمر؟.. الذنب يُحاصرني من كل الجهات كلما أتخيّله على فراش المرض يسأل إن وصلته مكالمة أو رسالة مني، والحسرة تملكني كلما أتذكره يناديني ابنتي ولم أكن أعلم أنه كان يقصدها ويترقب ردة فعلي عند سماعها. على الطاولة الجانبية لسريري أجد ورقةً وقلماً يغرياني بأن أعري هواجسي. أكتب إليه رسالة اشتهاها ذات يوم، استجداها بخط يدي، واستهجنْتُ الفكرة يومها. أمسك بالقلم وأكتب. لم أكن يوماً مغرمة بالكتابة.. ولم تكن تستهويني.. في هذه اللحظة أشعر بمتعةٍ لا أعرف ماهيتها. هل أتخفف من وزر آلامي بالكتابة؟ هل الكاتب أناني عندما يبيث للأوراق كلماته لكانه يتخلص منها فيقرأها الآخرون؟ ربما.. لأنني كلما أكتب، أجدني أخف همّاً، كبذورٍ أنثر كلماتي على الورق لتنمو وتتكاثر.. فيختلط البياض الأصم ببعض السواد.. سواد الحبر.. سواد القلم.. سواد الخطايا والذنوب.

أبي..

إليك أكتب..

أعرف أن كلماتي لن تصلك، وأنتك لن تقراني..

رغم ذلك سأكتب لك.. وسأظل أكتب..

لعلك تشعر بي..

بل حتماً أنت تراني.. متيقنة من ذلك.. لأن روحي تتخفف من أحمالها وشعوري بالذنب يقل كلما أكتب.

أردت أن أعلمك أنك غيرتني من حيث لا تدري، كلماتك أعادتني إلى الحياة.. لم أكن أعرف أن تأثير الكلمة يمكن أن يصل إلى ذلك المدى، ويغيّر دفة حياةٍ بأكملها. وصلتني رسائلك ولم أكن أعلم أنها من أبي، ذلك الأب الذي لم أقل له كلمة أبي يوماً. لا أعرف من الملام هنا على وجه التحديد؟ أنا أم الآخرون؟ هل ألوم نفسي لأنني لم أسأل يوماً عن أبي الذي لُقت منذ طفولتي بأنه ليس معنا.. بل في السماء؟ وأنني لم أستوعب من خلال لغة وجهه الواضحة إيصال ما كان يريد اخباري به؟ وأنني لم أقرأ كلماته إلا متأخرة؟ أم ألوم الآخرين وهو أسهل عليّ بطبيعة الحال وأخف وطأة؟

أعبث بذاكرتي كشريطٍ مسجلٍ لثعيدني إليك، أحاول تذكر ملامحك الهادئة وصوتك الدافئ، أعيد قراءة الأبيات التي كنت تقرؤها عليّ، أتخيل الطاولة المستديرة والأوراق الممتلئة بالشوق والحنين. أشتاق إلى الحديقة الدمشقية وأزهار الياسمين والقهوة السوداء.. أسافر إليك.. إلى حيث تأخذني اللفة.

لا أملك القدرة على الكتابة مثلك لذا سأختصر وأتوقف هنا.. لكن أعدك أنني لن أتوقف عن الكتابة إليك.

ابنتك..

أضع القلم جانباً وأطوي الورقة، أبحث عن مظروف بين الأدراج بجانب السرير، أجد مظروفاً أبيض لا أتذكر مصدره، أضع الورقة المطوية بداخلها، أنزع الغطاء اللاصق وأغلق المظروف. سأرسل الرسالة إلى عنوان منزله في دمشق، أدرك أنها لن تصله أبداً، إلا أن روحي خفيفة، أشعر بأنها تغادرني إليه.. تراه يبتسم.. يخط بقلمه يكتب مريم.. ويناديني ابنتي..

تمت

لندن 2014-8-25

شكر وتقدير

شكراً لهدى ..

التي ألهمتني فكرة الرسائل من حيث لا تدري .. فكانت البذرة التي أنبتت هذه الرواية ..

Notes

[1←]

نخلة الجميرا هي الأصغر بين مجموعة من ثلاث جزر اصطناعية على شكل

نخيل

تعرف باسم "

جزر النخيل

" في

دبي بالإمارات

.

[2←]

الحوار هنا مجرد اجتهاد من الراوي لتخمين ما دار بين ريم والفرشاة قد يصيب أو يخطئ، فهو محض خيال لا أكثر ولا أقل.

[3←]

دهارافي أكبر أحياء الفقراء في مومباي، ويضم الحي مزيجاً مثيراً من القرى والمناطق السكنية والهويات اللغوية والدينية والطبقية من مختلف جنبات الهند. اكتسب شهرة عالمية بعد عرض فيلم "المليونير المتشرد".

[4←]

"المليونير المتشرد" هو فيلم **بريطاني** من إنتاج عام **2008م**، ومن اخراج داني بويل. والنص مقتبس عن رواية للكاتب والدبلوماسي الهندي فيكاس سوارب.

[5←]

جون لانغدون هيدن داون: من مواليد الثامن عشر من نوفمبر 1828م. طبيب بريطاني اشتهر بوصفه للاضطراب الوراثي الشائع نسبياً ويسمى الآن متلازمة داون.

[6←]

أطلقت هيئة تنمية المجتمع خدمة "احتضان" لتوفير الرعاية لفئة الأطفال مجهولي النسب في إمارة دبي، حيث تقوم بتوفير المؤسسات الإيوائية ومتابعة رعايتهم داخل الأسر الحاضنة والأسر البديلة. المصدر موقع هيئة تنمية المجتمع.

[7←]

أكلة إماراتية شعبية تتكون من الشعيرية والهيل والزعفران والسكر وتقدم مع البيض المقلي. تؤكل غالباً على الإفطار.

[8←]

مقتبس من قصيدة للشاعر محمود درويش.

[9←]

رواية "الخيميائي" من تأليف **باولو كويلو** نشرت لأول مرة عام **1988**. وترجمت الرواية إلى 67 لغة، وقد بيع منها 65 مليون نسخة في أكثر من 150 بلداً.

مقتبس من رواية "ساق البامبو" لسعود السنعوسي.

1. [الغلاف](#)
2. [مدائن اللهفة](#)
3. [مدائن اللهفة](#)
4. [إهداء](#)
5. [مدائن اللهفة](#)
6. [-1-](#)
7. [-2-](#)
8. [-3-](#)
9. [-4-](#)
10. [-5-](#)
11. [-6-](#)
12. [-7-](#)
13. [-8-](#)
14. [-9-](#)
15. [-11-](#)
16. [-12-](#)
17. [-13-](#)
18. [-14-](#)
19. [-15-](#)
20. [-16-](#)
21. [-17-](#)
22. [-18-](#)
23. [الرسالة التي لن تصل](#)
24. [Notes](#)